التبر المسبوك في نصيحة الملوك

عرّبه عن الفارسيّة إلى العربيّة أحد تلامذته

للإمام حجة الإسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

ضبطه وصحّحه
أحمد شمس الدّين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف: ٣٦٦١٣٥
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

التعريف بالكتاب

جاء في كشف الظنون صحيفة ٢٤٣ من الجزء الأول ما نصه بالحرف الواحد :

التبر المسبوك في نصائح الملوك

فارسي للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ ألّفه للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي ، ثم عرّبه بعضهم ، ونقله محمد بن علي المعروف بعاشق جلبي إلى التركية ، ونقله أيضاً علائي بن محمد الشريف الشيرازي لسنان بك من أتباع بايزيد ابن السلطان سليمان خان وسماه نتيجة السلوك . وهو على مقدمة أورد فيها نصائح الغزالي لمحمد بن ملك شاه ، ومقالتين وسبعة أبواب ، وفي هذا المترجم إلحاقات كثيرة . ونقله أيضاً المولى محمد بن عبد العزيز المعروف بوجودي المتوفى سنة ألف وعشرين ا هـ بحروفه .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله على أنعامه وأفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأصحابه وآله ، (وبعد) .

فإنه سألني بعض المتقدمين من الكبراء أن أنقل هذا الكتاب وهو كتاب نصيحة الملوك من اللغة الفارسية إلى الألفاظ العربية ، فامتثلت ذلك ونقلته على ترتيبه وصورته ، ولم أغيّر شيئاً من وضع الكتاب وصفته . واجتهدت في تسهيل عباراته ، وإيضاح إشاراته ، قصداً لمستعمل الكلام ، ليكون أقرب للإفهام ، بقدر ما بلغته بلاغته وأفصحت عنه فصاحته . وترجمت عما استشهد به مؤلف الكتاب من الأخبار والأشعار الفارسية ، بأشعار من العربية ، إشارة إلى معانيها ، وتلويحاً إلى مقاصدها ومغازيها . وأنا اعتذر عن تقصيري بفضلهم غاية الاعتذار ، إذ لم أكن من فرسان هذا المضمار ، فليتجاوز عن تقصيري الكرماء ، وليصفح لي عن نقصه بفضلهم العلماء . ومن وجد في كلامه خللاً فستره ، أو أصاب زللاً فغيره ، حاز بذلك جزيل الأجر ، وجميل الذكر . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

تمهيد

قال الشيخ الإمام العالم العارف زين الدين حجة الإسلام شرف الأئمة أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، رحمه الله ، وهو يخاطب السلطان محمد بـن ملك شاه رحمه الله :

اعلم يا سلطان العالم ، ملك الشرق والغرب ، أن لله عليك نعماً ظاهرة ، وآلاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها ، ويتعين عليك إذاعتها ونشرها ؛ ومن لم يشكر نعم الله ، جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، فقد عرض تلك النعمة للزوال وخجل من تقصيره يوم القيامة ، وكل نعمة تفنى بالموت فليس لها عند العاقل قدر ولا عند اللبيب خطر ؛ لأن العمر وإن تطاولت مدده ، لا ينفع طوله إذا انقضى عدده ؛ فإن نوحاً عليه السلام عاش ألف سنة ونيفاً ومن موته إلى الآن خمسة آلاف سنة وكأنه لم يكن . فالقدر النعمة التي تبقى على الدوام ، وتدوم مدى الليالي والأيام ، وهي نعمة الإيمان الذي هو بذر السعادة المؤبدة ، والنعمة المخلّدة . والله جلّت قدرته وعلت كلمته وآلاؤه قد خوّلك بهذه النعمة ، وزرع بذر الإيمان في صفاء صدرك ، وأودعه في قلبك وسرك ، ومكّنك من تربية ذلك البذر ، وأمرك أن تسقيه ماء الطاعة حتى تصير شجرة أصلها في قعر الأرض السفلى ، وفرعها في السموات العلى ، كما قال عز من قائل : **﴿ ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾**[إبراهيم : ٢٤] . وإذا لم يثبت أصل الشجرة بالإيمان ولم يكمل فرعها ، يخاف عليها من هبوب رياح الموت ، وعواصف الفوت ، فتنقلع عند النفس الأخير ، فيبقى العبد والعياذ بالله بغير إيمان ، ويلقى ربه بغير إحسان .

واعلم أيها الملك أن لهذه الشجرة عشرة أصول وعشرة فروع ؛ فأصلها الاعتقاد بالجنان ، وفرعها العمل بالأركان ، ولما صادف القبول من المجلس العالي شرح هذه العشرة أصول والعشرة فروع ؛ ليشتغل سلطان العالم بتربية هذه الشجرة ، وإنما يصح له ذلك إذا أفرد يوماً من أيام الأسبوع لعبادة ربه والاشتغال فيه بعمل الآخرة وهو يوم الجمعة ، فإنه عيد المؤمنين ، وفيه ساعة شريفة كل من سأل الله تعالى فيها حاجة بنية حاضرة ، وسريرة طاهرة ، فإنه جلّ ذكره يقضي حاجته ، ولا يخيب دعوته . وماذا عليك إذا أفردت من سبعة أيام يوماً واحداً لخدمة ربك فإنه في المثل : لو كان لك عبد وأمرته أن يشتغل في كل أسبوع يوماً واحداً بخدمتك ، ليتأهب له مع تقصيره في الأيام الستة ، فخالفك ذلك العبد ، كيف يكون حاله عندك مع أن العبد لست بخالقه وإنما هو عبد لك مجازاً ؟

وأنت أيها الملك عبد مخلوق للخالق تعالى ، وعبده على الحقيقة ، فلمَ ترضى من نفسك ما لا ترضاه من عبدك ؟

فَانْوِ الصيام من ليلة الجمعة ، وإن أضفت إليه الخميس كان أولى ؛ وقم يوم الجمعة صبحاً ، واغتسل والبس من الثياب ما له ثلاث صفات : أن يكون حلالاً ، وأن لا يكون أبريسماً[1] ، وأن يكون مما تجوز فيه الصلاة ؛ في الصيف الدَّبيقي[2] والقصب والكتان والتوزري[3] ، وفي الشتاء الخز والصوف الرومي ؛ وكل ثوب على غير هذه الصفة فإن الله تعالى لا يرضاه .

وصلِّ الصبح في جماعة ، ولا تتكلم إلى أن تطلع الشمس ، ولا تحوّل وجهك عن القبلة ، وخذ السبحة في يدك وقل « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ألف مرة ، فإذا طلعت الشمس فأْمُرْ قارئاً يقرأ عليك هذا الكتاب ، وكذلك

---

(١) الإِبْرَيْسَم : أحسن الحرير .

(٢) ثياب تنسب إلى دَبيق ، بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر .

(٣) ثياب تنسب إلى توزر (بالفتح ثم السكون وفتح الزاي) مدينة في أقصى افريقيا، من نواحي الزاب الكبير . بينها وبين قفصة عشرة فراسخ .

فليقرأ عليك في كل جمعة ليحصل في محفوظتك ، فإذا فرغ القارىء من قراءة الكتاب فصلِّ أربع ركعات وسبح إلى وقت الضحى ، فإن ثواب هذه الصلاة عظيم وخاصة يوم الجمعة .

وبعد ذلك إذا كنت على تخت[1] الإسلام أو كنت في الخلوة فقل : « اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد » متواتراً . ومهما قدرت أن تتصدق به في هذا اليوم فتصدق ، واجعل هذا اليوم الواحد من أيام الأسبوع لله ليجعل الله باقي الأسبوع مكفراً عنك .

* * *

---

(١) التخت : مكان مرتفع للجلوس .

ابتداء

قاعدة الاعتقاد

الذي هو أصل الإيمان

اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع ما في العالم ، وأنه واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، كان في الأزل وليس لكونه زوال ، ويكون مع الأبد وليس لبقائه فناء ، وجوده في الأبد والأزل واجب وما للعدم إليه سبيل ، وهو موجود بذاته ، وكل أحد محتاج إليه وليس له إلى أحد احتياج ، وجوده به ووجود كل شيء به .

* * *

الأصل الثاني

في تنزيه الخالق تعالى

اعلم أن الباريء ، تعالى ذكره ، ليس له صورة ولا مثل ، وأنه لا ينزل ولا يحل في قالبٍ ، وأنه تعالى منزّه عن الكيف والكم ، وعن لماذا وكم ، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وكلما يخطر في الوهم والخيال والفكر من التخييل والتمثيل والتكييف فإنه منزّه عن ذلك ؛ لأن ذلك من صفات المخلوقين وهو خالقها فلا يوصف بها . وأنه تعالى جدّه ليس في مكان ولا على مكان ؛ فإن المكان لا يحصره ، وكل ما في العالم فإنه تحت عرشه ، وعرشه تحت قدرته وتسخيره ، وأنه قبل العرش كان فترها عن المكان ، وليس العرش بحامل له بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته ، واستواؤه على العرش كما قال ، وعلى الوجه الذي قال ، وبالمعنى الذي أراد ، استواءً منزهاً عن الاستقرار والمماسة والتمكن والحلول والانتقال . وهو سبحانه فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى البعيد

والقريب من حبل الوريد ، وهو على كل شيء قدير وشهيد ، فعّال لما يريد . لا يزال في نعوت الجمال ، وصفات الجلال ، منزهاً عن الزوال والانتقال ، مستغنياً عن زيادة الاستكمال . وأنه منزه عن الحاجة إلى المكان قبل خلقه العرش وبعد خلقه العرش . وأنه متّصف بالصفة التي كان عليها في الأزل ، ولا سبيل إلى التغير والانقلاب إلى صفاته . وهو سبحانه مقدّس عن صفات المخلوقين ومنزّه عنهم . وهو في الدنيا معلوم وفي الآخرة مرئي كما نعلمه في الدنيا بلا مثل ولا شبه ؛ لأن تلك الرؤ ية لا تشابه رؤ ية الدنيا ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

* * *

الأصل الثالث
في القدرة

وأنه تعالى على كل شيء قدير ، وملكه في نهاية الكمال ، ولا سبيل إلى العجز والنقصان بل ما شاء فعل وما يشاء يفعل . وأن السموات السبع والأرضين السبع والكرسي والعرش في قبضة قدرته وتحت قهره وتسخيره ومشيئته ؛ هو مالك الملك لا ملك إلا ملكه ،تعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً .

* * *

الأصل الرابع
في العلم

وأنه تعالى عالم بكل معلوم ، وعلمه محيط بكل شيء ؛ فليس شيء في العلا إلى الثرى إلا قد أحاط به علمه ؛ لأن الأشياء جميعها بعلمه ظهرت ، وبإرادته خلقها ، وبقدرته كونها . وأنه تعالى يعلم عدة رمال القفار ، وقطرات الأمطار ، وورق الأشجار ، وغوامض الأفكار ، وما دارت عليه الرياح والهواء في علمه ظاهر مثل عدد نجوم السماء . وأن جميع ما في العالم بإرادته ومشيئته ؛ وليس شيء من قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو

ضر ، زيادة أو نقصان ، راحة أو تعب ، صحة أو وَصَب[1] ، إلا بحكمه وتدبيره ، ومشيئته وتقديره ؛ لو اجتمع الأنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحرّكوا في العالم ذرة ، أو يسكنوها ، أو ينقصوا منها ، أو يزيدوا فيها بغير إرادته وحوله وقوته لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا . وما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون ، ولا ترد مشيئته . ومهما كان ويكون أو هو كائن فإنه بتدبيره وأمره وتسخيره .

* * *

الأصل الخامس والسادس
في أنه سميع بصير

وكما أنه عالم بجميع المعلومات فإنه سميع لكل مسموع ، بصير لكل مبصر ، وأنه بسمع واحد وبصر واحد يرى دبيب النملة في الليلة المظلمة ، ولا يخفى عن سمعه صوت الدود تحت أطباق الأرض ، وأن سمعه ليس بأذن وبصره ليس بعين . وكما أن علمه لا يصدر عن فكرة ففعله بغير آلة وعدة ، يقول للشيء كن فيكون .

* * *

الأصل السابع
في الكلام

وأن أمره تعالى على جميع الخلق نافذ واجب ؛ مهما أخبر به من وعد ووعيد فإنه حق وأمره كلامه . وكما أنه عالم مريد قدير سميع بصير فهو متكلم ، وكلامه بغير حلق ولا لسان ، ولا فم ولا أسنان . والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزّلة على الأنبياء ، عليهم السلام ، جميعها كلامه . وكلامه صفته ، وكل صفاته قديمة . وكما أن الكلام عند الآدمي حرف وصوت ، فكلام الله منزّه عن الأصوات والحروف .

---

(١) الوصب : الوجع والمرض .

الأصل الثامن
في أفعاله تعالى

وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى ، وليس معه شريك ولا خالق بل هو الخالق الواحد . ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه . ولا يمكن الظلم في أفعاله ، لأن الظالم هو الذي يتصرف في ملك غيره ، والخالق تعالى لا يتصرف إلا في ملكه ، وليس معه مالك سواه ، وكل ما يكون وهو كائن فهو ملك له ، وهو المالك بلا شبيه ولا شريك . وليس لأحد عليه اعتراض بلِمَ وكيف ؛ لكن له الحكم والأمر في كل أفعاله ، وما لأحد غير التسليم والنظر إلى صنعه والرضا بقضائه .

* * *

الأصل التاسع
في ذكر الآخرة

وأنه تعالى خلق العالم من نوعين : جسد وروح ؛ وجعل الجسد منزلاً للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم ، وجعل لكل روح مدة مقدّرة تكون في الجسد ، فآخر تلك المدة هو أجل تلك الروح من غير زيادة ولا نقصان ، فإذا جاء الأجل فرّق بين الروح والجسد ، وإذا وضع الميت في قبره أعيدت روحه إلى جسده ليجيب سؤال منكر ونكير ؛ وهما شخصان هائلان عظيمان ، فيسألانه من ربك ومن نبيك ؟ فإن استعجم ولم يجب عذّباه وملآ قبره حيات وعقارب . ويوم القيامة ، يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة ، تردّ الروح إلى الجسد وتنشر الصحف وتعرض الأعمال على الخلائق ، فينظر كل إنسان في كتابه فيرى أعماله ، ويشاهد أفعاله ، ويعلم مقدار طاعته ومعصيته ، وتوزن أعماله في ميزان الأعمال ثم يؤمر بالجواز على الصراط ؛ والصراط أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة ، فكل من كان في هذا العالم على الطريقة المستقيمة الصالحة ، وسلوك المحجة الواضحة ، عبر على الصراط وجازه في راحة واستراحة ؛ وإن لم يكن على السيرة المحمودة ، والأعمال الصالحة

الرشيدة ، وعصى مولاه ، واتّبع هواه ، فإنه لا يجد الطريق على الصراط ، ولا يهتدي إلى الجواز ويقع في جهنم . والكل يوقفون على الصراط ويُسألون عن أفعالهم ؛ فيُسأل الصادقون عن صدقهم ، ويمتحن المراؤون والمنافقون ويفضحون ، فمن الناس قوم يدخلون الجنة بغير حساب ، وجماعة يحاسبون بالرفق والمسامحة ، وجماعة يحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحاققة . ثم يسحب الكفار إلى نار جهنم بحيث لا يجدون خلاصاً ، ويدخل أهل الإسلام المطيعون إلى الجنة ، ويؤمر بالعصاة إلى النار ، وكل من نالته شفاعة الأنبياء والعلماء والأكابر عُفي عنه ، وكل من ليس له شفيع عوقب بمقدار إثمه وعُذّب بقدر جرمه ، ثم يدخل الجنة إن كان قد سلم معه إيمانه .

* * *

الأصل العاشر
في ذكر رسول الله ﷺ

ولما قدّر الله تعالى هذا التقدير ، وجعل أفعال الإنسان وأحواله ، واكتسابه وأعماله ، منها ما هو سبب لسعادته ، ومنها ما هو سبب لشقاوته ، والإنسان لا يقدر أن يعرف ذلك من تلقاء نفسه ، خلق الله تعالى ـ بحكم فضله ورحمته ، وطوله[1] ومنته ـ ملائكةً ، وبعثهم إلى أشخاص قد حكم لهم بالسعادة في الأزل وهم الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، فأرسلهم إلى الخلق ليوضحوا لهم طرق السعادة والشقاوة لئلا يكون للناس على الله حجة ، وأرسل نبينا محمداً ﷺ آخراً ، وجعله بشيراً ونذيراً ، فأوصل نبوّته إلى درجة الكمال ، فلم يبقَ للزيادة فيه مجال ؛ ولهذا جعله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده ، وأمر الخلائق من الأنس والجن بطاعته واتباعه ، وجعله سيد الأولين والآخرين ، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

---

(١) الطَّوْل (بفتح الطاء) : الفضل والغنى واليسر .

ذكر فروع شجرة الإيمان

اعلم أيها السلطان أن كل ما كان في قلب الإنسان من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان ، وما كان جارياً على أعضائه السبعة من الطاعة والعدل فذلك فرع الإيمان ؛ فإذا كان الفرع ذاوياً ذابلاً دلّ على ضعف الأصل فإنه لا يثبت عند الموت ، وعمل البدن عنوان إيمان القلب .

والأعمال التي هي فروع الإيمان هي تجنب المحارم وأداء الفرائض ، وهما قسمان :

أحدهما بينك وبين الله تعالى ، مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة واجتناب شرب الشراب والعفة عن الحرام .

والأخرى بينك وبين الخلق ، وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم .

والأصل في ذلك أن تعمل فيما بينك وبين الخالق تعالى من طاعة أمره ، والازدجار بزجره ، وما تختار أن تعتمده عبيدك في حقك ، وأن تعمل فيما بينك وبين الناس ما تؤثر أن يعمل معك من سواك إذا كان غيرك السلطان وكنت من رعيته .

واعلم أنّ ما كان بينك وبين الخالق سبحانه فإن عفوه قريب ، وأما ما يتعلق بمظالم الناس فإنه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة ، وخطره عظيم ، ولا يسلم من هذا الخطر أحد من الملوك إلا ملك عمل بالعدل والإنصاف ليعلم كيف يطلب العدل والإنصاف يوم القيامة .

وأصول العدل والإنصاف عشرة

الأصل الأول من ذلك

هو أن تعرف أولاً قدر الولاية وتعلم خطرها ؛ فإن الولاية نعمة من نعم الله عز وجل ، من قام بحقّها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده ، ومن قصّر عن النهوض بحقهاحصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله تعالى . والدليل على عظم قدرها ، وجلالة خطرها ، ما روي عن رسول الله ، ﷺ ، أنه

قال : « **عدل السلطان يوماً واحداً أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ إلا ظل الله ، ولا يستظل بظله إلا سبعة أناس : سلطان عادل في رعيته ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل يكون في السوق وقلبه في المسجد ، ورجلان تحابا في الله ، ورجل ذكر الله في خلوته فأذرى دمعه من مقلته ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ومال إلى نفسها فقال إني أخاف الله ، ورجل يتصدق سرّاً بيمينه ولم تشعر بها شماله** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل ، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **والذي نفس محمد بيده إنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل جملة الرعية ، وكل صلاة يصلّيها تعدل سبعين ألف صلاة** » .

فإذا كان كذلك فلا نعمة أجلّ من أن يعطى العبد درجة السلطنة ، ويجعل ساعة من عمره بجميع عمر غيره ؛ ومن لم يعرف قدر هذه النعمة واشتغل بظلمه وهواه يخاف عليه أن يجعله الله من جملة أعدائه .

ومما يدلّ على خطر الولاية ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ، ﷺ ، أتى بعض الأيام فلزم حلقة باب الكعبة ، وكان في البيت نفر من قريش فقال : « **يا سادات قريش عاملوا رعاياكم وأتباعكم بثلاثة أشياء : إذا سألوكم الرحمة فارحموهم ، وإذا حكّموكم فاعدلوا فيهم ، واعملوا بما تقولون ؛ فمن لم يعمل بهذا فعليه لعنة الله وملائكته لا يقبل الله منه فرضاً ولا نفلاً** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من حكم بين اثنين بظلم فلعنة الله على الظالمين** » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **ثلاثة لا ينظر الله إليهم : سلطان جائر كاذب ، وشيخ زانٍ ، وفقير متكبر** » يعني أنه متكبر للطمع . وقال عليه الصلاة والسلام يوماً للصحابة : « **سيأتي عليكم يوم تفتحون فيه جانبي الشرق والغرب ويصير في أيديكم ، وكل عمال تلك الأماكن في النار إلا من اتقى الله وسلك سبيل التقوى وأدّى الأمانة** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **ما من عبد ولاّه الله أمر رعية**

فغشهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم إلا حرّم الله عليه الجنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من ولّي أمور المسلمين ولم يحفظهم كحفظه أهل بيته فقد تبوّأ مقعده من النار** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي : ملك ظالم ، ومبتدع غالٍ في الدين يتعدى الحدود** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة السلطان الظالم** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **خمسة قد غضب الله عليهم ، إن شاء أمضى غضبه ومقرهم النار : أمير قوم يطيعونه يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم ، ورئيس قوم يطيعونه ولا يساوي بين القوي والضعيف ويحكم بالميل والمحاباة ، ورجل لا يأمر أهله وأولاده بطاعة الله ولا يعلمهم أمور الدين ولا يبالي من أين أطعمهم ، ورجل استأجر أجيراً فتمم عمله ومنعه أجرته ، ورجل ظلم زوجته في صداقها** » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبع يوماً جنازة ، فتقدم رجل فصلى عن الجنازة ، فلما دفن الميت وضع ذلك الرجل يده على القبر وقال : اللهم إن عذبته فبحقك لأنه عصاك ، وإن رحمته فإنه فقير إلى رحمتك ؛ وطوبى لك أيها الميت إن لم تكن أميراً أو عريفاً أو كاتباً أو عوانيّاً أو جابياً . فلما تكلم بهذه الكلمات غاب شخصه عن عيون الناس ، فأمر عمر بطلبه فلم يوجد ، فقال عمر : هذا الخضر عليه السلام .

وقال النبي ﷺ : « **ويل للأمراء ، وويل للعرفاء ، وويل للعوانية ، فإنهم أقوام يعلقون من السماء بذوائبهم في القيامة ، ويسحبون على وجوههم إلى النار ، يودون لو لم يعملوا عملاً قط** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **ما من رجل ولي أمر عشرة من الناس إلا وجيء به يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه ، فإن كان عمله صالحاً فكّ الغلّ عنه ، وإن كان عمله سيئاً زيد عليه غلّ آخره** » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء حين يلقاه ، إلا من عدل وقضى بالحق ولم يحكم بالهوى ولم يمل مع أقاربه ولم يبدل حكماً لخوف أو طمع ، لكن يجعل كتاب الله مرآته ونصب عينيه ويحكم بما فيه . وقال رسول الله ﷺ : « **يؤتى بالولاة يوم القيامة**

فيقول الله جلّ وعلا : أنتم كنتم رعاة خليقتي وخزنة ملكي في أرضي . ثم يقول لأحدهم : لم ضربت عبادي فوق الحد الذي أمرت به ؟ فيقول : يا رب لأنهم عصوك وخالفوك . فيقول جلّ جلاله : لا ينبغي أن يسبق غضبك غضبي . ثم يقول للآخر : لم ضربت عبادي أقل من الحد الذي أمرت به ؟ فيقول : يا رب رحمتهم . فيقول تعالى : « كيف تكون أرحم مني ! خذوا الذي زاد والذي نقص فاحشوا بهما زوايا جهنم » .

قال حذيفة بن اليمان : أنا لا أثني على أحد من الولاة سواء كان صالحاً أو غير صالح ، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يؤتى بالولاة العادلين والظالمين يوم القيامة ، فيوقفون على الصراط ، فيوحي الله إلى الصراط أن ينفضهم إلى النار مثل من جار في الحكم أو أخذ رشوة على القضاء أو أعار سمعه لأحد الخصمين دون الآخر ، فيسقطون من الصراط فيهوون سبعين سنة في النار حتى يصلوا إلى قرارها** » .

وقد جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان يخرج ليلاً متنكراً بحيث لا يعرفه أحد ، وكان يسأل كل من يلقاه عن حال داود سرّاً ، فجاءه جبريل في صورة رجل فقال له داود : ما تقول في داود ؟ فقال : نِعْمَ العبد ، إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كدّه وتعب يديه . فعاد داود إلى محرابه باكياً حزيناً وقال : إلّهي علمني صنعة آكل بها من كدي وتعب يدي . فعلمه الله تعالى صنعة الزرد .

وكان عمر بن الخطاب يخرج كل ليلة يطوف مع العسس[1] حتى يرى خللاً يتداركه ، وكان يقول : لو تركت عنزاً جرباء على جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أُسأل عنها في القيامة . فانظر أيها السلطان إلى عمر مع احتياطه وعدله وما وصل أحد إلى تقواه وصلاته كيف يتفكر ويتخوف من أهوال يوم القيامة ، وأنت قد جلست لاهياً عن أحوال رعيتك غافلاً عن أهل ولايتك ! .

---

(١) العسس جمع عاسّ : وهو الذي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

قال عبد الله بن عمر وجماعة من أهل بيته : كنا ندعو الله أن يرينا عمر في المنام ، فرأيته بعد اثني عشر كأنه قد اغتسل وهو متلفع فقلت : يا أمير المؤمنين كيف وجدت ربك ، وبأي حسناتك جازاك ؟ فقال : يا عبد الله كم لي منذ فارقتكم ؟ فقلت : اثنتا عشرة سنة . فقال : منذ فارقتكم في الحساب وخفت أن أهلك إلا أن الله غفور رحيم ، جواد كريم . فهذا حال عمر ولم يكن له من دنياه شيء من أسباب الولاية سوى درة[1] .

حكاية : أرسل قيصر ملك الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد فعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ قالوا : ليس لنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة . فخرج الرسول في طلبه فوجده نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه والعرق يسقط منه إلى أن بلَّ الأرض ؛ فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل تكون جميع ملوك الأرض لا يقر لهم قرار من هيبته ، وتكون هذه حاله ؟ ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت ، وملكنا يجور لا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً . أشهد أن دينكم لدين الحق ؛ ولولا أني أتيت رسولاً لأسلمت ، ولكن سأعود بعد هذا وأسلم .

أيها السلطان ! خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، والشرح في ذلك طويل ، ولا يسلم الوالي إلا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طرق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر .

* * *

الأصل الثاني

أن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم ، وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا ، فإنهم يثنون عليك ويغرونك ويطلبون رضاك طمعاً فيما في يديك من خبث الحطام ووبيل الحرام ،

---

(١) الدِّرَّة (بكسر الدال المهملة) : السوط يضرب به .

ليحصلوا منه شيئاً بالمكر والحيل . والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال،ومنصفك في الوعظ والمقال ؛ كما يقال إن شقيقاً البلخي دخل على هارون الرشيد فقال له : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : أنا شقيق ولست بزاهد . فقال له : أوصني ! فقال : إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصديق ، وإنه يطلب منك مثل صدقه ، وإنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق ، وإنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله ، وإنه أقعدك موضع عثمان بن عفان ذي النورين وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه ، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب وهو يطلب منك العلم والعدل كما يطلب منه . فقال له : زدني من وصيتك ! فقال : نعم ، اعلم أن الله تعالى داراً تعرف بجهنم ، وأنه قد جعلك بواب تلك الدار ، وأعطاك ثلاثة أشياء : بيت المال والسوط والسيف ، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة ، فمن جاء محتاجاً فلا تمنعه من بيت المال ، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف بإذن وليّ المقتول ؛ فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار ، والمتقدم إلى دار البوار . فقال له : زدني ! فقال : إنما مثلك كمثل معين الماء ، وسائر العلماء في العالم كمثل السواقي ، فإذا كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقي ، وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقي .

حكاية : خرج هارون الرشيد والعباس ليلاً إلى زيارة الفضيل بن عياض ، فلما وصلا إلى بابه وجداه يتلو هذه الآية : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ [الجاثية : ٢١] . ومعناها : أيظن الذين اكتسبوا الخطايا ويعملون الأعمال المذمومة أن نسوي بينهم في الآخرة وبين الذين يعملون الخيرات وهم مؤمنون ؟ كلا ! ساء ما يحكمون . فقال هارون : إن كنا جئنا للموعظة فكفى بهذه موعظة . ثم أمر العباس أن يطرق عليه الباب ، فطرق بابه فقال : افتح الباب لأمير المؤمنين !

فقال الفضيل : ما يصنع عندي أمير المؤمنين ؟ فقال : أطِعْ أمير المؤمنين وافتحِ الباب ؛ وكان ليلاً والمصباح يتقد ، فأطفاه وفتح الباب ،

فدخل الرشيد وجعل يَطوف بيده ليصافح بها الفضيل ، فلما وقعت يده عليه قال : الويل لهذه اليد الناعمة إن لم تنج من العذاب في القيامة ! ثم قال له : يا أمير المؤمنين استعد لجواب الله تعالى ، فإنه يوقفك مع كل واحد مسلم على حدة يطلب منك إنصافك إيّاه . فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً وضمه إلى صدره ؛ فقال له العباس : مهلاً يا فضيل فقد قتلت أمير المؤمنين . فقال الفضيل : يا هامان أنت وقومك أهلكتموه ، وتقول لي مهلاً فقد قتلته ! فقال الرشيد للعباس : ما جعلك هامان إلا وجعلني فرعون . ثم وضع الرشيد بين يديه ألف دينار وقال له : هذه من وجه حلال من صداق أمي وميراثها . فقال له الفضيل : أنا آمرك أن ترفع يديك عما فيها وتعود إلى خالقك وأنت تلقيه إليّ . فلم يقبلها وخرج من عنده .

نكتة : سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي فقال : صف لي العدل ! فقال : كل مسلم أكبر منك سنّاً فكن له ولداً ، ومن كان أصغر منك فكن له أباً ، ومن كان مثلك فكن له أخاً ، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه ، وإياك أن تضرب مسلماً سوطاً واحداً على حقد منك فإن ذلك يصيرك إلى النار .

نكتة : حضر بعض الزهاد بين يدي خليفة ، فقال له : عظني ! فقال : يا أمير المؤمنين إني سافرت الصين ، وكان ملك الصين قد أصابه الصمم وذهب سمعه ، فسمعته يقول يوماً وهو يبكي : والله ما أبكي لزوال سمعي وإنما أبكي لمظلوم يقف ببابي يستغيث فلا أسمع استغاثته ، ولكن الشكر لله إذ بصري سالم . وأمر منادياً ينادي : ألا كل من كانت له ظلامة فليلبس ثوباً أحمر . فكان يركب الفيل فكل من رأى عليه ثوباً أحمر دعاه واستمع شكواه وأنصفه من خصمائه . فانظر يا أمير المؤمنين إلى شفقة ذلك الكافر على عباد الله وأنت مؤمن من أهل بيت النبوة ، فانظر كيف تريد أن تكون شفقتك على رعيتك .

نكتة أخرى : حضر أبو قلابة مجلس عمر بن عبد العزيز فقال له : عظني ! قال : من عهد آدم إلى وقتنا هذا لم يبق خليفة سواك . فقال : زدني ! فقال : أنت أول خليفة يموت . فقال : زدني ! فقال : إن كان الله معك فممن تخاف ، وإن لم يكن معك فإلى من تلتجىء . قال : حسبي ما قلت .

حكمة : كان سليمان بن عبد الملك خليفة فتفكر يوماً وقال : قد تنعمت في الدنيا طويلاً فكيف يكون حالي في الآخرة ؟ وأتى إلى أبي حازم ، وكان عالم أهل زمانه وزاهد أوانه ، وقال : أنفذ لي شيئاً من قوتك الذي تفطر عليه . فأنفذ له قليلاً من نخالة وقد شواها ، فقال : هذا فطوري . فلما رأى سليمان ذلك بكى وأثر في قلبه الخشوع تأثيراً كبيراً ، فصام ثلاثة أيام وطوى ، ثم أفطر الليلة الثالثة على تلك النخالة المشوية ؛ فيقال إنه في تلك الليلة تغشى أهله فكان منها عبد العزيز وجاء منه عمر بن عبد العزيز ؛ وكان واحد زمانه في عدله وإنصافه وزهده وإحسانه ، وكان على طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقيل إن ذلك ببركة نيته وصيامه وأكله من ذلك الطعام .

نكتة : سئل عمر بن عبد العزيز : ما كان سبب توبتك ؟ قال : كنت أضرب يوماً غلاماً فقال لي : اذكر الليلة التي تكون صبيحتها القيامة ! فعمل ذلك الكلام في قلبي .

نكتة أخرى : رأى بعض الأكابر هارون الرشيد في عرفات وهو حافٍ حاسر قائم على الرمضاء الحارة ، وقد رفع يديه وهو يقول : إلّهي أنت أنت وأنا أنا الذي دأبي كل يوم أعود إلى عصيانك ، ودأبك أن تعود إليّ برحمتك . فقال بعض الكبراء : انظروا إلى تضرع جبار الأرض بين يدي جبار السماء .

نكتة أخرى : سأل عمر بن عبد العزيز يوماً أبا حازم الموعظة ، فقال له أبو حازم : إذا نمت فضع الموت تحت رأسك ، وكل ما أحببت أن يأتيك الموت وأنت عليه مصرّ فالزمه ، وكل ما لا تريد أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه ، فربما كان الموت منك قريباً .

فينبغي لصاحب الولاية أن يجعل هذه الحكاية نصب عينيه ، وأن يقبل المواعظ التي وعظ بها غيره ، فكلما رأى عالماً سأله أن يعظه . وينبغي للعلماء أن يعظوا الملوك بمثل هذه المواعظ ، ولا يغرّوهم ولا يدّخروا عنهم كلمة الحق ، وكل من غرّهم فهو مشارك لهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

الأصل الثالث من ذلك

ينبغي أن لا تقنع برفع يدك عن الظلم ، لكن تهذّب غلمانك وأصحابك وعمالك ونوابك ، فلا ترضى لهم بالظلم فإنك تُسأل عن ظلمهم كما تُسأل عن ظلم نفسك .

نكتة : كتب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى عامله أبي موسى الأشعري : « أما فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته ؛ فإياك والتبسّط فإن عمالك يقتدون بك ، وإنما مثلك كمثل دابة رأت مرعًى مخضرّاً فأكلت كثيراً حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل » .

وفي التوراة : كل ظلم علمه السلطان من عماله فسكت عنه كان ذلك الظلم منسوباً إليه وأخذ به وعوقب عليه .

وينبغي للوالي أن يعلم أنه ليس أحدٌ أشد غبناً ممن باع دينه وآخرته بدنيا غيره . وأكثر الناس في خدمة شهواتهم ، فإنهم يستنبطون الحيل ليصلوا إلى مرادهم من الشهوات . وكذلك العمال ، لأجل نصيبهم من الدنيا يغرون الوالي ويحسنون الظلم عنده فيلقونه في النار ليصلوا إلى أغراضهم . وأي عدو أشد عداوة ممن يسعى في هلاكك وهلاك نفسه لأجل درهم يكتسبه ويحصله ؟ وفي الجملة ينبغي لمن أراد حفظ العدل على الرعية أن يرتّب غلمانه وعماله للعدل ، ويحفظ أحوال العمار ، وينظر فيها كما ينظر في أحوال أهله وأولاده ومنزله ، ولا يتم له ذلك إلا بحفظ العدل أولاً من باطنه ؛ وذلك أن لا يسلّط شهوته وغضبه على عقله ودينه ، ولا يجعل عقله ودينه أسرى شهوته وغضبه بل يجعل شهوته وغضبه أسرى عقله ودينه .

ويجب أن يعلم أن العقل من جوهر الملائكة ومن جند البارىء ، جلّت قدرته ، وأن الشهوة والغضب من جند الشيطان ؛ فمن يجعل جند الله وملائكته أسرى جند الشيطان كيف يعدل في غيرهم ؟ وأول ما تظهر شمس العدل في الصدر ، ثم ينشر نورها في أهل البيت وخواص الملك فيصل شعاعها إلى

الرعية ، ومن طلب الشعاع في غير الشمس فقد طلب المحال ، وطمع فيما لا ينال .

واعلم أيها السلطان وتبيّن أن ظهور العدل من كمال العقل ، وكمال العقل أن ترى الأشياء على ما هي ، وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها ؛ مثلاً إذا كنت تجور على الناس لأجل الدنيا فينبغي أن تنظر أي شيء مقصودك من الدنيا ، فإن كان مقصودك من الدنيا أكل الطعام الطيب فيجب أن تعلم أن هذه شهوة بهيمة في صورة آدمي ؛ لأن الشهوة إلى الأكل من طباع البهائم . وإن كان مقصودك لبس التاج ، فإنك امرأة في صورة رجل ؛ لأن التزين والرعونة من أعمال النساء . وإن كان مقصودك أن تمضي غضبك على أعدائك ، فأنت أسد أو سبع في صورة آدمي ؛ لأن إحضار الغضب للقلب من طباع السباع . وإن كان مقصودك أن تخدمك الناس ، فأنت جاهل في صورة عاقل ؛ فإنك لو كنت عاقلاً لعلمت أن الذين يخدمونك إنما هم خدم وغلمان لبطونهم وفروجهم وشهواتهم ، وأن خدمتهم وسجودهم لأنفسهم لا لك ؛ وعلامة ذلك أنهم لو سمعوا إرجافاً[1] بأن الولاية تؤخذ منك وتعطى لسواك لأعرضوا بأجمعهم عنك ، وفي أي موضع علموا الدرهم خدموا وسجدوا لذلك الموضع ، فعلى الحقيقة ليست هذه خدمة وإنما هي ضحكة .

والعاقل من نظر أرواح الأشياء وحقائقها ولا يغتر بصورها . وحقيقة هذه الأعمال ما ذكرناه وأوضحناه ، فكل من لم يتيقن ذلك فليس بعاقل ، ومن لم يكن عاقلاً لم يكن عادلاً ، ومن لم يكن عادلاً مأواه جهنم ؛ فلهذا السبب كان رأس مال السعادات كلها العقل .

* * *

الأصل الرابع

أن الوالي في الأغلب يكون متكبراً ، ومن التكبر يحدث عليه السخط

---

(١) الإرجاف : الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب ؛ جمعها أراجيف .

الداعية إلى الانتقام ، والغضب غول العقل وعدوه وآفته ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الغضب في ربع المهلكات . وإذا كان الغضب غالباً فينبغي أن يميل في الأمور إلى جانب العفو ، ويتعود الكرم والتجاوز ، فإذا صار ذلك عادة لك ماثلت الأنبياء والأولياء ، ومتى جعلت إمضاء الغضب عادة ماثلت السباع والدواب .

حكاية : يقال إن أبا جعفر المنصور أمر بقتل رجل والمبارك بن الفضل حاضر فقال : يا أمير المؤمنين اسمع خبراً قبل أن تقتله ! روى الحسن البصري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إذا كان يوم القيامة وجمع الخلائق في صعيد واحد ، نادى منادٍ من كان له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا عن الناس** » فقال : أطلقوه فإني قد عفوت عنه . وأكثر ما يكون غضب الولاة على من ذكرهم وطوّل لسانه عليهم فيسعون في سفك دمه .

قال عيسى عليه السلام ليحيى بن زكريا عليهما السلام : إذا ذكرك أحد بشيء وقال فيك صحيحاً فاشكر الله ، وإن قال فيك كذباً فازددْ من الشكر ، فإنه يزيد في ديوان أعمالك وأنت مستريح ، يعني أن حسناته تكتب لك في ديوانك .

وذكر عند رسول الله ﷺ رجل ، فقيل إن فلاناً رجل قوي شجاع فقال : « **كيف ذاك** » ؟ فقالوا : يقوى بكل أحد وما صارع أحداً إلا صرعه . فقال عليه الصلاة والسلام : « **القوي الشجاع من قهر نفسه لا من صرع غيره** » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **ثلاث من كانت فيه فقد كمل إيمانه : من كظم غيظه ، وأنصف في حال رضاه وغضبه ، وعفا عند المقدرة** » . وقال عمر ابن الخطاب : لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب .

حكاية : قيل عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه بلغه عن رجل كلام يكرهه ، فأخذ طبقاً مملوءاً من التمر الجني وحمله بنفسه إلى دار ذلك الرجل ، فطرق الباب فقام الرجل وفتح الباب فنظر إلى الحسين ومعه الطبق فقال : وما

هذا يا ابن بنت رسول الله ؟ قال : خذه فإنه بلغني عنك أنك أهديت إليّ حسناتك فقابلت بهذا .

حكاية أخرى : خرج زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه إلى المسجد ، فسبّه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين وقال : كفوا أيديكم عنه ! ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : يا هذا أنا اكثر مما تقول ، وما لا تعرفه مني أكثر مما قد عرفته ، فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك ؛ فخجل الرجل واستحيى ، فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم ، فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله ﷺ .

ويروى أن زين العابدين استدعى غلاماً له وناداه مرتين فلم يجبه ، فقال له زين العابدين : أما سمعتَ ندائي ؟ فقال : بلى قد سمعت ، قال : فما حملك على تركك إجابتي عليّ ؟ قال : أمنت منك وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت ، فقال : الحمد لله الذي أمن مني عبدي .

ويروى عنه أنه كان له غلام فعمد إلى شاة فكسر رجلها فقال له : لم فعلت هذا ؟ قال : فعلته عمداً لأغيظك ، قال : ما أنا أغيظ من الذي علمك وهو إبليس ، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى !

ويروى أن رجلاً سبه ، فقال له زين العابدين : يا هذا بيني وبين جهنم عقبة إن أنا أجزتها فما أبالي ، وإن أنا لم أجزها فأنا أكثر مما تقول .

وقال رسول الله ﷺ : « **قد يبلغ الرجل بحلمه وعفوه درجة الصائم القائم ، ويكون رجل يكتب في جريدة الجائرين ولا ولاية له ولا حكم إلا على أهل منزله** » .

ويروى أن إبليس رأى موسى عليه السلام فقال : يا موسى أعلمك ثلاثة أشياء وتطلب لي من الله حاجة واحدة ، فقال : وما الثلاثة أشياء ؟ فقال : يا موسى احذر من الغضب والحرد ، فإن الحَردان يكون خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالكرة ، واحذر من البخل ، فإني أفسد على البخيل دنياه ودينه ، واحذر من النساء فإني ما نصبت للخلق شركاً اعتمد عليه مثل النساء .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من كظم غيظه وهو قادر على أن لا يكظمه ملأ الله قلبه بالإيمان ، ومن لم يلبس ثوباً طويلاً خوفاً من التكبر والخيلاء ألبسه الله تعالى حلل الكرامة** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **ويل لمن يغضب وينسى غضب الله** » . وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : علمني عملاً أدخل به الجنة ، فقال : « **لا تغضب** » . قال : ثم ماذا ؟ قال : « **استغفر الله قبل صلاة العصر سبعين مرة لتكفر عنك ذنوب سبعين سنة** » ، فقال : ما لي ذنوب سبعين سنة ، فقال : « **لأمك** » ، قال : وما لأمي ذنوب سبعين سنة ، قال : « **لأبيك** » ، قال : وما لأبي ذنوب سبعين سنة قال : « **لأخوتك** » ، قال : نعم.

وروى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقسم يوماً مالاً فقال له رجل : ما هذه القسمة . يعني أنها ليست بإنصاف ، فحكيت ذلك لرسول الله ﷺ فغضب واحمرّ وجهه ولم يقل شيئاً سوى أن قال : « **رحم الله أخي موسى فإنه أوذي فصبر على الأذى** » .

فهذه الجملة من الحكايات والأخبار تقنع في نصيحة الولاة ؛ إذا كان أصل إيمانهم ثابتاً أثر فيه هذا القدر ، فإن لم يؤثر ما ذكرناه فيهم فقد أخلوا قلوبهم من الإيمان ، وإنه ما بقي من إيمانهم إلا الحديث باللسان . عامل يتناول من أموال المسلمين في كل سنة كذا وكذا ألف درهم ويبقى في ذمته ، ويطالب بها في القيامة ويحصل بمنفوعها ويبوء بالعقوبة والعذاب يوم المرجع والمآب كيف تؤثر عنده هذه الأسباب ؟ وهذا نهاية الغفلة ، وقلة الدين وضعف النحلة .

* * *

الأصل الخامس

إنك في كل واقعة تصل إليك وتعرض عليك تقدر أنك واحد من جملة الرعية ؛ وإن الوالي سواك ، فكل ما لا ترضاه لنفسك لا ترضى به لأحد من المسلمين ، وإن رضيت لهم بما لا ترضاه لنفسك فقد خنت رعيتك وغششت أهل ولايتك .

روي أن رسول الله ﷺ كان قاعداً يوم بدر في ظل ، فهبط الأمين جبريل عليه السلام فقال : يا محمد أتقعد في الظل وأصحابك في الشمس ؟ فعوتب بهذا القدر . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من أحب النجاة من النار والدخول إلى الجنة فينبغي أن يكون بحيث إذا جاءه الموت وجد كلمة الشهادة بلسانه ، وكل ما لا يرضى به لنفسه لا يرضى به لأحد من المسلمين** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من أصبح في قلبه همة سوى الله فليس من الله في شيء ، ومن لم يشفق على المسلمين فليس منهم** » .

* * *

الأصل السادس

أن لا تحتقر انتظار أرباب الحوائج ووقوفهم ببابك ، واحذر من هذا الخطر ؛ ومتى كان لأحد من المسلمين إليك حاجة فلا تشتغل عن قضائها بنوافل العبادات ، فإن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات .

نكتة : كان يوماً عمر بن عبد العزيز يقضي حوائج الناس ، فجلس إلى الظهر وتعب فدخل بيته ليستريح من تعبه ، فقال له ولده : وما الذي يؤمنك أن يأتيك الموت في هذه الساعة وعلى بابك منتظر حاجة وأنت مقصر في حقه ؟ فقال : صدقت . ونهض فعاد إلى مجلسه .

* * *

الأصل السابع

أن لا تعود نفسك الاشتغال بالشهوات من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة ، لكن تستعمل القناعة في جميع الأشياء فلا عدل بلا قناعة .

نكتة : سأل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعض الصالحين فقال : هل رأيت من حالي شيئاً تكرهه ؟ قال : سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين ، وأن لك قميصين أحدهما لليل والآخر للنهار ، فقال : غير هذين شيء ؟ فقال : لا . قال : والله إن هذين لا يكونان أبداً .

* * *

الأصل الثامن

إنك متى أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف فلا تعملها بالشدة والعنف . قال ﷺ : « **كل والٍ لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة** » . ودعا عليه الصلاة والسلام يوماً : « **اللهم الطف بكل والٍ يلطف برعيته ، واعنف على كل والٍ يعنف على رعيته** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **الولاية والإمرة حسنتان لمن قام بحقهما ، سيئتان لمن قصر فيهما** » .

نكتة : كان هشام بن عبد الملك من خلفاء بني أمية فسأل يوماً أبا حازم وكان من العلماء : ما التدبير في النجاة من أمور الخلافة ؟ قال : أن تأخذ الدرهم الذي تأخذه من وجه حلال ، وأن تضعه في موضع حق . قال : من يقدر على هذا ؟ قال : من يرغب في نعيم الجنان ، ويرهب من عذاب النيران .

* * *

الأصل التاسع

أن تجتهد أن ترضى عنك رعيتك بموافقة الشرع . قال النبي ﷺ لأصحابه : « **خير أمتي الذين يحبونكم وتحبونهم ، وشر أمتي الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتلعنونهم** » . وينبغي للوالي أن لا يغتر بكل من وصل إليه وأثنى عليه ، وأن لا يعتقد أن الرعية مثله راضون عنه ، وأن الذي يثني عليه إنما يفعل ذلك من خوفه منه ، بل ينبغي ترتيب معتمدين يسألون عن حاله من الرعية ليعلم عيبه من ألسنة الناس .

* * *

الأصل العاشر

أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع ، فإن من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه . كان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يقول : إني لأصبح ونصف الخلق عليّ ساخط . ولا بد لكل من يؤخذ منه الحق أن

يسخط ، ولا يمكن أن يرضي الخصمين ؛ وأكثر الناس جهلاً من ترك رضا الحق لأجل رضا الخلق .

كتب معاوية إلى عائشة ، رضي الله عنهما ، أن عظيني عظة مختصرة ، فكتبت إليه تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من طلب رضا الله تعالى في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن طلب رضا الناس بسخط الله تعالى سخط الله عليه وأسخط الخلق عليه** » . مثل أن لا يأمرهم بالطاعة ولا يعلمهم أمور الدين ويطعمهم الحرام ويمنع الأجير أجرته والمرأة مهرها ، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس .

* * *

بيان

العينين اللتين

هما مشرب شجرة الإيمان

وإذ قد عرفت أصول شجرة الإيمان ، وعرفت فروعها ، فاعلم أن هناك عينين للعلم تستمد الشجرة منهما الماء .

العين الأولى : في معرفة الدنيا ولم أوجد فيها الإنسان

اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار ، والإنسان مسافر ؛ فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره ، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها . فكل سنة تنقضي من الإنسان فكالمرحلة ، وكل شهرينقضي منه فكاستراحة المسافر في طريقه ، وكل أسبوع فكقرية تلقاه ، وكل يوم فكَفْر[1] سوف يقطعه ، وكل نفس كخطوة يخطوها ، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة . وهذه الدنيا قنطرة ، فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه ، ونسي المنزلة التي هي مصيره ومكانه ، وكان جاهلاً غير عاقل ؛ وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده ، ويكتفي منها بقدر الحاجة ؛ ومهما جمعه فوق كفايته كان سمّاً ناقعاً ، ويتمنى أن تكون جميع خزائنه وسائر ذخائره رماداً وتراباً لا فضة ولا ذهباً ؛ ولو جمع مهما جمع فإن نصيبه ما يأكله ويلبسه لا سواه . وجميع ما يخلفه يكون عليه حسرة وندامة ويصعب عليه نزعه عند موته ؛ فحلالها حساب ، وحرامها عذاب . إن كان قد جمع المال من حلال طلب منه الحساب ، وإن كان قد جمع من حرام وجب عليه العذاب ، وكان أشد عليه من حسرته حلول العذاب في حفرته ؛ ومع هذا

---

(١) الكفر (بفتح الكاف وسكون الفاء) : القرية الصغيرة . والكفر من الأرض : ما بعد عن الناس .

جميعه إذا كان إيمانه صحيحاً سالماً لحضرة الديان ، فلا وجه ليأسه من الرحمة والرضوان ، فإن الله جواد كريم ، غفور رحيم .

واعلم أيها السلطان أن راحة الدنيا أيام قلائل وأكثرها منغص بالتعب ، مشوب بالنصب ، وبسببها تفوت راحة الآخرة التي هي الدائمة الباقية ، والملك الذي لا نهاية له ولا فناء ، فيسهل على العاقل أن يصبر في هذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء .

نكتة : لو كان للإنسان معشوقة وقيل له إن صبرت عنها هذه الليلة سلمت إليك ألف ليلة بلا تعب ولا نصب ، وإن كنت تزورها فإنك لا تراها أبداً ؛ فإنه كان عشقه لها عظيماً وصبره عنها أليماً لكن يهون عليه صبره على البعد عنها ليلة واحدة لينال الآخرة ، بل الدنيا ليست بشيء في جنب الآخرة ، ولا شبه بينهما لأن الآخرة لا نهاية لها ، ولا يُدرك بالوهم طولها .

وقد أفردنا في صفة الدنيا كتاباً ، لكنا نقتنع الآن بما نورده من حال الدنيا ، وقد أوضحنا حالها على عشرة أمثلة :

المثال الأول في بيان سحر الدنيا : وقد قال ﷺ : « **احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت ؛ وأول سحرها أنها تريك أنها ساكنة عندك مستقرة معك ، وإذا تأملتها خلتها وهي هاربة منك نافرة عنك على الدوام ، وإنما تتسلسل على التدريج ذرة ذرة ونفساً نفساً** » . ومثل الدنيا مثل الظل إذا رأيته حسبته ساكناً وهو يمر دائماً ، وكذلك عمر الإنسان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة ، وكذلك الدنيا تودعك وتهرب عنك وأنت غافل لا تخبر وذاهل لا تشعر ؛ ولذلك قال بعض الشعراء في المعنى :

وما الدنيا وإن كثرت وطابت ... بها اللذات إلا كالسرابِ
يمر نعيمها بعد التذاذ ... ويمضي ذاهباً مَرَّ السحابِ

المثال الثاني من ذلك : ومن سحرها أنها تظهر لك محبة لتعشقها ، وتريك أنها لك مساعدة ، وأنها تنتقل عنك إلى غيرك ، ثم تعود عدوة لك على

غفلة . ومثلها مثل امرأة فاجرة خداعة للرجال حتى إذا رأوها عشقوها ودعتهم إلى بيتها فاغتالتهم وأهلكتهم .

نكتة : رأى عيسى عليه السلام الدنيا في بعض مكاشفاته وهي على صورة عجوز هرمة فقال لها : كم كان لك من زوج ؟ فقالت : لا يحصون كثرة ، فقال : ماتوا عنك أم طلقوك ؟ فقالت : بل أنا قتلتهم وأفنيتهم ، فقال عيسى : يا عجباً منك ومن دواهيك ! هذا صنعك بأهلك وهم فيك راغبون ، وعليك يقتتلون ، وبمن مضى لا يعتبرون .

المثال الثالث من ذلك : ومن سحرها أنها تزين ظاهرها بمحاسنها ، وتخفي محنتها وقواتلها في باطنها ، لتغر الجاهل بما يرى من ظاهرها . ومثلها كمثل عجوز قبيحة المنظر تخفي وجهها وتلبس حسن الثياب وتتزين وتتجمل لتفتن الخلق من بعد ، فإذا كشفوا عنها غطاءها وخمارها ، وألقوا عنها إزارها ، ندموا على محبتها لما شاهدوه من فضائحها ، وعاينوه من قبائحها . وقد جاء في الخبر أن الدنيا يؤتى بها يوم القيامة في صورة عجوز قبيحة مشوهة زرقاء العين وحشة الوجه قد كشّرت عن أنيابها ، فإذا رآها الخلائق قالوا نعوذ بالله من هذه القبيحة المشوهة ، فيقال لهم : هذه الدنيا التي كنتم عليها تتحاسدون ، ولأجلها كنتم تتحاقدون وتسفكون الدماء بغير حق ، وتقطعون أرحامكم ، وتغترون بزخرفها ؛ ثم يؤمر بها إلى النار فتقول : إلٓهي أين أحبابي ؟ فيؤمر بهم فيلقون في نار جهنم .

المثال الرابع من ذلك : أن الإنسان يحسب كم كان في الأزل قبل أن يوجد في الدنيا ، وكم يكون مدة عدمه بالموت ، وكم قدر هذه المدة التي بين الأبد والأزل وهي مدة حياته في الدنيا ، فيعلم أن مثال الدنيا كطريق المسافر أوله المهد ، وآخره اللحد ، وفيما بينهما منازل معدودة ، وأن كل سنة كمنزل ، وكل شهر كفرسخ ، وكل يوم كميل ، وكل نفس كخطوة ، وهو يسير دائماً فيبقى لواحد من طريقه فرسخ ولآخر أكثر ، وهو قاعد ذاهل ، وساكن غافل ، كأنه

مقيم لا يبرح وقد اشتغل بتدبير أعمال لا يحتاج إليها بعد عشر سنين ، وربما يحصل بعد عشرة أيام تحت التراب .

المثال الخامس من ذلك : اعلم أن مثل الدنيا وما تتحف أهلها فيها بشهواتهم ولذاتهم من الأمور الفضائح التي يشاهدونها في الآخرة ، كمثل إنسان أكل فوق حاجته من طعام حلو سمين إلى أن هاض وهاضت معدته ، فرأى فضيحته من هلاك معدته ونتونة نفسه وكره برازه وحاجته ، فندم بعد ذهاب لذته وبقاء فضيحته من هلاك معدته . وكذلك كلّما ألف الإنسان لذات الدنيا وتبين له ذلك كانت عاقبته أصعب ، ويبتلى بمثل ذلك عند نزعه وخروج روحه ، كمن كان له نعم كثيرة وذهب وفضة وجوار وغلمان وكروم وبساتين وفارقه ، كان ألم فراق روحه عليه أصعب ممن ليس له إلا القليل ، فإن ذلك الألم والعذاب لا يزول بالموت بل يزيد ، لأن تلك المحبة صفة القلب والقلب بحاله لا يموت .

المثال السادس من ذلك : اعلم أيها السلطان أن أمور الدنيا أول ما تبدو يظنها الإنسان قريبة مختصرة وأن شغلها لا يدوم ، وربما كان من بعض أشغالها وأحوالها أمر يتسلسل منه أمر وينفق فيه بضاعة العمر ، فإن عيسى عليه السلام قال : طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ولهباً فلا يزال يشرب حتى يهلك ولا يروى . قال النبي ﷺ : « **كما لا يمكن من خاض البحر أن لا يناله البلل ، كذلك لا يمكن من دخل في أمور الدنيا أن لا يتدنس** » .

المثال السابع من ذلك : مثل من حصل في الدنيا كمثل ضيف دُعي إلى مائدة ، ومن عادة المضيف أن يزين داره للأضياف ويدعو إليها قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج ، ويضع بين يدي أضيافه طبقاً من ذهب مملوءاً بالجوهر ومجمرة من فضة من عود وبخور ليتطيبوا ويتبخروا وينالهم طيب رائحتها ، ثم يعاودون الطبق والمجمرة بحالهما لمالكهما ليدعو غيرهم كما دعاهم . فمن كان عاقلاً عارفاً برسم الدعوات وضع من ذلك البخور على النار وتطيب وانصرف ، ولم يطمع أن يتناول الطبق والمجمرة ، وتركهما بطيبة من قلبه ، وشكر لصاحب

البيت وربه . ومن كان أبله أحمق توهم أن ذلك الطبق والمجمرة قد أعدا له وهم يريدون أن يهبوهما له ، فلما همّ بالخروج أخذ الطبق والمجمرة فلم يُمَكَّن من الخروج بهما ، واستعادوهما منه ، فضاق صدره وتعب قلبه ، وطلب الإقالة إذ ظهر ذنبه ؛ فالدنيا كمثل طريق المسافر ودار الضيافة ليتزودوا منها لطريقهم ولا يطمعوا في الدار .

المثال الثامن : مثل أهل الدنيا واشتغالهم بأشغالها ، واهتمامهم بأحوالها ، ونسيان الآخرة وإهمالها كمثل قوم ركبوا مركباً في البحر فعدلوا إلى جزيرة لأجل الطهارة وقضاء الحاجة ، فنزلوا إلى الجزيرة والملّاح يناديهم : لا تطيلوا المكث لئلا يفوت الوقت ، ولا تشتغلوا بغير الوضوء والصلاة فإن المركب سائر . فمضوا وتفرّقوا في الجزيرة وانتشروا في نواحيها ؛ فالعقلاء منهم لم يمكثوا وشرعوا في الطهارة وعادوا إلى المركب فأصابوا الأماكن خالية فجلسوا في أطهر الأماكن وأوفقها وأرفعها .

ومنهم قوم نظروا إلى عجائب تلك الجزيرة ووقفوا يتنزهون في زهرتها وثمارها ، وروضاتها وأشجارها ، ويسمعون طيب ترنّم أطيارها ، ويتعجبون من حصبائها الملونة وأحجارها ، فلما عادوا إلى المركب لم يجدوا موضعاً ولا رأوا متسعاً فقعدوا في أضيق مواضعه وأظلمها .

ومنهم قوم لم يقنعوا بالنزهة ولم يقتصروا على الفرجة ، لكنهم جمعوا من تلك الحصباء الملونة ثم حملوها معهم إلى المركب فلم يجدوا مكاناً ولا فرجة ، فقعدوا في أضيق المواضع وحملوا ما استصحبوا من تلك الأحجار على أعناقهم ، فلم يمضِ إلا يوم أو يومان حتى تغيرت ألوان تلك الأحجار واسودت وفاح منها أكره رائحة ولم يجدوا مخلصاً من الزحام ليلقوا ثقلها عن أعناقهم ، فندموا على ما فعلوا ، وحصلوا بثقل الأحجار على أعناقهم إذ كانوا بتحصيلها اشتغلوا .

ومنهم قوم وقفوا مع عجائب تلك الجزيرة وتنزهوا ، وفي الرجوع لم

يتفكروا حتى سار المركب فبعدوا عنه وانقطعوا في أماكنهم وتخلفوا ، إذ لم يصيخوا إلى المنادي ولم يستمعوا ، فمنهم من أكلته السباع ونهشته الضباع .

فالقوم المتقدمون هم القوم المؤمنون المتقون ، والقوم المتخلفون الهالكون هم الكفار المشركون الذين نسوا الله ونسوا الآخرة وسلموا كليتهم إلى الدنيا وركنوا إليها كما قال عز من قائل : ﴿ **ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة** ﴾ أي ركنوا إليها . وأما الجماعة المتوسطون فهم العصاة الذين حفظوا أصل الإيمان لكنهم لم يكفوا أيديهم عن الدنيا ، فمنهم من تمتع بغناه ونعمته ومنهم من تمتع مع فقره وحاجته إلى أن غلبت أوزارهم ، وكثرت أوساخهم وأوضارهم .

المثال التاسع : روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : « **يا أبا هريرة أتريد أن أريك الدنيا ؟** » قلت : نعم يا رسول الله . فأخذ بيدي وانطلق حتى وقف بي على مزبلة فيها رؤوس الآدميين وبقايا عظام نخرة وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين فقال : « **يا أبا هريرة هذه الرؤوس التي تراها كانت مثل رؤوسكم مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا ؛ كانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون ، وكانوا يجدون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدون ، فاليوم قد تغيرت عظامهم وتلاشت أجسامهم كما ترى ، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها وقت الرعونة والتجمل والتزين قد ألقتها الريح في النجاسات ، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها ، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها وينهبها بعضهم من بعض قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد من نتنها ؛ فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى ، فمن أراد أن يبكي على الدنيا فليبكِ فإنها موضع البكاء** » . قال أبو هريرة : فبكى جملة الحاضرين .

المثال العاشر : كان في زمن عيسى عليه السلام ثلاثة سائرين في طريق

فوجدوا كنزاً فقالوا : قد جعنا فليمضِ واحد منا ويبتاع لنا طعاماً . فمضى أحدهم ليأتيهم بطعام فقال : الصواب أن أجعل لهما سمّاً قاتلاً في الطعام ليأكلا منه فيموتا وأنفرد بالكنز دونهما ؛ ففعل ذلك وسم الطعام . واتفق الرجلان الآخران أنه إذا وصل إليهما قتلاه وانفردا بالكنز دونه . فلما وصل ومعه الطعام المسموم قتلاه وأكلا من الطعام فماتا . فاجتاز عيسى عليه السلام بذلك الموضع فقال للحواريين : هذه الدنيا فانظروا كيف قتلت هؤلاء الثلاثة وبقيت من بعدهم ، ويل لطلاب الدنيا من الدنيا .

العين الثانية معرفة النفس الأخير

اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان : طائفة نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذي ينزل معهم من الدنيا في قبورهم ، وما الذي يتركونه لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله .

وهذه الفكرة واجبة على الخلق ، وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجب ؛ لأنهم كثيراً أزعجوا قلوب الخلائق ، وأنفذوا إلى الناس الغلمان بالسيئات ، وأفزعوا الخليقة وأدخلوا في قلوبهم الرعب ؛ فإن بحضرة الحق تعالى غلاماً اسمه عزرائيل لا مهرب لأحد من مطالبته وتشتيته ؛ وكل موكلي الملوك يأخذون جعلهم[1] ذهباً وفضة وطعاماً وصاحب هذا التوكيل لا يأخذ سوى الروح جعلاً ؛ وسائر موكلي السلاطين تنفع عندهم الشفاعة وهذا الموكل لا تنفع عنده شفاعة شافع ؛ وجميع الموكلين يمهلون من يوكلون إليه اليوم والليلة والساعة وهذا الموكل لا يمهل نفساً واحداً ؛ وعجائب أحواله كثيرة ، إلا أنّا نذكر من أحواله خمس حكايات :

---

(١) الجعل (بضم الجيم وتسكين العين المهملة) : ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة .

الحكاية الأولى :

وهو ما رواه وهب بن منبه ، وكان من علماء اليهود وأسلم ، روى أنه كان ملكٌ عظيم أراد أن يركب يوماً في جملة أهل مملكته ويري الخلق عجائبه وزينته ، فأمر أمراءه وحجابه وكبراء دولته رتبة بالركوب ليظهر للناس سلطنته ، فأمر بإحضار فاخر الثياب ، وأمر بعرض خيوله المعروفة وعتاقه الموصوفة ، فاختار من جملتها جواداً يعرف بالسبق ، فركبه بالمركب والطوق المرصع بالجوهر ، وجعل يركض الحصان في عسكره ، ويفتخر بتيهه وتجبره ، فجاء إبليس فوضع فمه في منخره ونفخ هواء الكبر في أنف أَنَفَته ، فقال في نفسه : من في العالم مثلي ؟ وجعل يركض بالكبرياء ، ويزهو بالخيلاء ، ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره ، وعجبه وفخره ، فوقف بين يديه رجل عليه ثياب رثة ، فسلم عليه فلم يرد عليه سلامه ، فقبض على عنان فرسه ، فقال له الملك : ارفع يدك فإنك لا تدري بعنان من قد أمسكت ! فقال : لي إليك حاجة ؛ فقال : أصبر حتى أنزل ؛ فقال : حاجتي في هذه الساعة إليك لا عند نزولك ؛ فقال : اذكر حاجتك ! فقال : إنها سرٌ ولا أقولها إلا في أذنك ؛ فأصغى إليه بسمعه فقال : أنا ملك الموت أريد أن أقبض روحك ؛ فقال : أمهلني بقدر ما أعود إلى بيتي وأودّع أولادي وزوجتي ! فقال : كلا لا تعود تراهم أبداً فإنك قد فنيت مدة عمرك . وأخذ روحه وهو على ظهر الفرس فخر ميتاً .

وعاد ملك الموت من هناك فأتى رجلاً صالحاً قد رضي ربه عليه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال : لي إليك حاجة وهي سرّ ؛ فقال الصالح : قل حاجتك في أذني ! فقال : أنا ملك الموت ؛ فقال : مرحباً بك ، الحمد لله على مجيئك فإني كنت كثير الترقّب لوصولك ، ولقد طالت علي غيبتك وكنت مشتاقاً إلى قدومك ؛ فقال له ملك الموت : إن كان لك شغل فاقضِه ؛ فقال : ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عز وجل ؛ فقال : كيف تحب أن أقبض روحك ؟ فإني أمرت أن أقبض روحك كيف اخترت وآثرت ؛ فقال اتركني كيما أتوضأ وأصلي ، فإذا أنا سجدت فخذ روحي وأنا ساجد . ففعل ملك الموت ما أمره به ونقله إلى رحمة ربه جل وعلا .

الحكاية الثانية :

روي أنه كان ملك كثير المال قد جمع مالاً كثيراً عظيماً من كل نوع خلقه الله تعالى من متاع الدنيا ليرفّه نفسه ، ويتفرغ لأكل ما جمعه ، فجمع نعماً طائلة ، وبنى قصراً عالياً مرتفعاً سامياً يصلح للملوك والأمراء والأكابر والعظماء ، وركّب عليه بابين محكمين ، وأقام عليه الغلمان الأجلاد ، والحرسة والأجناد ، والبوابين كما أراد . وأمر ببعض الأيام أن يصطنع له من أطيب الطعام ، وجمع أهل مملكته وحشمه وأصحابه وخدمه ، ليأكلوا عنده وينالوا رفده ، وجلس على سرير مملكته ، واتكأ على وسادته ، وقال : يانفس قد جمعت نعم الدنيا بأسرها ، فالآن أفرغي بالك وكلي هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل . فلم يفرغ مما حدث به نفسه حتى أتى رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثة خلقة ، ومخلاته في عنقه معلقة ، على هيئة سائل يسأل الطعام ، فجاء وطرق الباب طرقة عظيمة هائلة بحيث تزعزع القصر وتزلزل ، وخاف الغلمان ووثبوا إلى الباب وصاحوا بالطارق وقالوا: يا ضعيف ما هذا الحرص وسوء الأدب ، اصبر حتى نأكل ونطعمك مما يفضل ! فقال لهم : قولوا لصاحبكم ليخرج إلي فلي إليه شغل مهم ، وأمر ملم . فقالوا : تنحَّ أيها الضعيف ، من أنت حتى تأمر صاحبنا بالخروج إليك ؟ فقال : أنتم عرّفوه ما ذكرت ؛ فلما عرّفوه قال : هلّا زجرتموه ، وحردتم عليه ونهرتموه ! ثم طرق الباب أعظم من الطرقة الأولى فنهضوا من أماكنهم بالعصي والسلاح وقصدوه ليحاربوه فصاح بهم صيحة وقال : الزموا أماكنكم فأنا ملك الموت ؛ فارتعدت فرائصهم وبطلت عن الحركة جوارحهم ، ورعبت قلوبهم ، وطاشت عقولهم ، فقال الملك : قولوا له يأخذ بدلاً مني ، وعوضاً عني ؛ فقال : ما آخذ إلا أنت ، ولا أتيت إلا لأجلك لأفرق بينك وبين هذه النعم التي خولتها ؛ فقال : لعن الله هذا المال الذي غرني وأضرني ، ومنعني عن عبادة ربي وكنت أظن أنه ينفعني ، فاليوم صار حسرتي وبلائي ، وخرجت صفر اليدين منه وبقي لأعدائي . فأنطق الله المال حتى قال : لأي شيء تلعنني ؟ العن نفسك ! فإن الله تعالى خلقني وإياك من تراب ، وجعلني في يدك لتتزود بي إلى آخرتك ،

وتتصدّق بي على الفقراء ، وتتزكى بي على الضعفاء ، ولتعمر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر ، لأكون لك عوناً في اليوم الآخر ، وأنت جمعتني وخزنتني، وفي هواك أنفقتني ، ولم تشكر حقي بل كفرتني ، فالآن تركتني لأعدائك ، وأنت بحسرتك وضرائك ؛ فأي ذنب لي حتى تلعنني ؟ ثم إن ملك الموت قبض روحه قبل أكل الطعام ، فسقط عن سريره صريع الحِمَام[1] .

الحكاية الثالثة :

قال يزيد الرقاشي : كان في زمن بني إسرائيل جبار من الجبابرة ، وكان في بعض الأيام جالساً على سرير ملكه فرأى رجلاً قد دخل من باب الدار ذا صورة منكرة وهيئة هائلة ؛ فلشدة خوفه من هجومه ، وهيبة قدومه ، وثب في وجهه وقال : من أنت أيها الرجل ؟ ومن أمرك بالدخول إلى داري ؟ فقال : صاحب الدار ، وأنا الذي لا يحجبني حاجب ، ولا أحتاج في دخولي على ملك إلى إذن ، ولا أرهب من سياسة سلطان ، ولا يفزعني جبار ، ولا لأحد من قبضتي فرار .

فلما سمع هذا الكلام خر على وجهه ، ووقعت الرعدة في جسده ، فقال له : أنت ملك الموت ؟ قال : نعم . قال : أقسم بالله عليك ألا ما أمهلتني يوماً واحداً لأتوب من ذنبي ، وأطلب العذر من ربي ، وأرد الأموال التي أودعتها خزانتي ، فلا أتحمل مشقة عذابها في الآخرة . فقال : كيف أمهلك ، وأيام عمرك محسوبة ، وأوقاته مثبوتة مكتوبة ؟ فقال : أمهلني ساعة . فقال : إن الساعات في الحساب ، وقد عبرت وأنت غافل ، وقد استوفيت أنفاسك ولم يبق لك نفس واحد . فقال : من يكون عندي ، إذا نقلتني إلى لحدي ؟ قال : لا يكون عندك سوى عملك . فقال: مالي عمل. قال : لا جرم يكون مقيلك إلى النار ، ومصيرك إلى غضب الجبار .

ثم قبض روحه فخر من سريره ووقع ، وعلا الضجيج من أهل مملكته وارتفع ، ولو علموا ما يصير إليه من سخط ربه لكان بكاؤهم أكثر وعويلهم أوفر .

---

(١) الحِمام : قضاء الموت وقدره .

الحكاية الرابعة :

يقال إن ملك الموت دخل على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل يحد نظره ويطيل بصره إلى رجل من ندمائه ، فلما خرج قال ذلك الرجل : يا نبي الله من كان ذلك الرجل الذي دخل ؟ فقال : ملك الموت . فقال : أخاف أن يريد قبض روحي فخلصني من يده ! فقال : كيف أخلصك ؟ فقال : تأمر الريح أن تحملني في هذه الساعة إلى بلاد الهند ، لعله يضل عني ولا يجدني .

فأمر سليمان الريح فحملته في الوقت والحال ؛ فعاد ملك الموت ودخل على سليمان بن داود ، عليهما الصلاة والسلام ، فلما دخل عليه قال له : لأي سبب كنت تطيل النظر إلى ذلك الرجل ؟ قال : كنت أتعجب منه لأني امرت أن أقبض روحه في أرض الهند ، وكان بعيداً عنها إلى أن اتفق بحمل الريح له إلى هناك ، فكان ما قدره الله تعالى .

الحكاية الخامسة :

يروى أن ذا القرنين مر بقوم لا يملكون شيئاً من أسباب الدنيا ، وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم ، وهم كل يوم يتعمّدون تلك القبور يكنّسونها وينظّفونها وينخرونها ويزورونها ويعبدون الله فيها ، وما لهم طعام إلا الحشيش ونبات الأرض . فبعث إليهم ذو القرنين رجلاً ، فدعا ملكهم فلم يجبه ، وقال : ما لي وله . فجاء ذو القرنين ، وقال : كيف حالكم ؟ فإني لا أرى لكم شيئاً من ذهب ولا فضة ، ولا أرى عندكم شيئاً من نعم الدنيا ؟ قال : لأن نعم الدنيا لا يشبع منها أحد قط . وقال : لم حفرتم القبور على أبوابكـم ؟ فقال : لتكون نصب أعيننا فننظر إليها ، ويتجدد لنا ذكر الموت ، ويبرد حب الدنيا في قلوبنا فلا نشتغل بها عن عبادة ربنا . فقال : ولم تأكلون الحشيش ؟ فقال : لأنا كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً للحيوانات ، ولأن لذة الطعام لا تتجاوز الحلق . ثم مد يده إلى طاقة فأخرج منها قحف رأس آدمي فوضعه بين يديه وقال : يا ذا القرنين ، أتعرف من كان صاحب هذا ؟ قال : كان صاحب هذا القحف ملكاً من ملوك الدنيا ، وكان يظلم رعيته ويجور عليهم وعلى الضعفاء ،

ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا ، فقبض الله روحه وجعل النار مقره وهذا رأسه . ثم مد يده إلى الطاقة وأخرج قحفاً آخر فوضعه بين يديه وقال له : أتعرف من كان صاحب هذا ؟ قال : كان هذا ملكاً عادلاً مشفقاً على رعيته محبّاً لأهل مملكته فقبض الله روحه وأسكنه جنته ، ورفع درجته . ثم إنه وضع يده على رأس ذي القرنين وقال : ترى أيّ هذين الرأسين يكون هذا الرأس ؟ فبكى ذو القرنين بكاء شديداً وضمه إلى صدره ، وقال له : إن رغبت في صحبتي سلمت إليك وزارتي وأقاسمك مملكتي . فقال : هيهات ما لي رغبة في ذلك . قال : ولم ؟ قال : لأن الناس جميعاً أعداؤك بسبب المال والمملكة ، وكلهم أصدقائي بسبب القناعة والصعلكة ، فالله تعالى معك .

فالآن يجب أن تعرف حكايات النفس الأخير وتتيقن معرفتها.

واعلم أن أهل الغفلة المغترين لا يحبون استماع حديث الموت لئلا يبرد حب الدنيا في قلوبهم ، وتتنغص عليهم لذة مأكولهم ومشروبهم. وقد جاء في الخبر أن من أكثر ذكر الموت وظلمة اللحد كان قبره روضة من رياض الجنة ، ومن نسي الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من حفر النار .

وكان رسول الله ﷺ يوماً يصف أجر الشهداء وثواب السعداء الذين قتلوا في معركة حرب الكفار ، فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله هل ينال ثواب الشهداء من لم يمت شهيداً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « **من ذكر الموت في كل يوم عشرين مرة كان له مثل أجر الشهداء ودرجتهم** » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحو الذنوب ويبرد حب الدنيا في القلوب** » . سئل عليه الصلاة والسلام : من أعقل الناس وأحزمهم ؟ فقال : « **أعقل الناس أكثرهم للموت ذكراً ، وأحزمهم أحسنهم له استعداداً ، له شرف الدنيا وكرامة الآخرة** » .

فمن عرف الدنيا كما ذكرناه ، وكرر في قلبه ذكر النفس الأخير سهلت عليه أمور دنياه ، وقوي أصل شجرة الإيمان في قلبه ، وأخذ في النمو والزيادة ، ونمت فروع شجرة الإيمان عنده ، ولقي الله وإيمانه سالم . والله جلت قدرته ،

وعلت كلمته ، ينوّر بصيرة سلطان العالم ليرى الأشياء على ما هي عليه ، ويجتهد في آخرته ، ويحسن إلى عباد الله وبريته ؛ فإن في رعيته ألف ألف من الخلائق إذا عدل فيهم كان الكلُّ شفعاءه ، ومن شفع فيه من هؤلاء الخلائق من المؤمنين كان آمناً يوم القيامة من العذاب ، وإن ظلمهم كان الكل خصماءه ، وعاد أمره عظيم الخطر ، شديد الغرر ؛ وإذا صار الشفيع خصماً أشكل الأمر .

* * *

الباب الأول

في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم

اعلم وتيقّن أن الله سبحانه وتعالى اختار من بني آدم طائفتين : وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ليبينوا للعباد على عبادته الدليل ، ويوضحوا لهم إلى معرفته السبيل ؛ واختار الملوك لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض ، وملكهم أزمة[1] الإبرام والنقض ؛ فربط بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته ، وأحَلّهم أشرف محل بقدرته ؛ كما يسمع في الأخبار : السلطان ظل الله في أرضه . فينبغي أن يُعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك ، وجعله ظله في الأرض ، فإنه يجب على الخلق محبته ، ويلزمهم متابعته وطاعته ، ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته ؛ قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [النساء : ٥٩] . فينبغي لكل من آتاه الله الدين أن يحب الملوك والسلاطين ، وأنْ يعطيهم فيما يأمرون ، ويعلم أن الله تعالى يعطي السلطنة والمملكة ، وأنه يؤتي ملكه من يشاء كما قال في محكم تنزيله : ﴿ **تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

---

(١) جمع زِمَام ، وهو الخيط الذي يشد في البُرَة أو في الخِشاش ثم يشد إلى طرف المقود . يقال : هو زمام قومه : قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم . وهو زمام الأمر : مِلاكه . وألقى في يده زمام أمره : فوضه إليه . وهو يصرف أزمة الأمور .

والسلطان العادل من عدل بين العباد ، وحذر من الجور والفساد . والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه ولا يدوم ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « **الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم** » . وفي التواريخ أن المجوس ملكوا أمر العالم أربعة آلاف سنة وكانت المملكة فيهم ؛ وإنما دامت المملكة بعدلهم في الرعية ، وحفظهم الأمور بالسوية ، وأنهم ما كانوا يرون الظلم والجور في دينهم وملتهم جائز ، وعمروا بعدلهم البلاد ، وأنصفوا العباد . وقد جاء في الخبر أن الله جلّ ذكره أوحى إلى داود عليه السلام أن انْهَ قومك عن سب ملوك العجم فإنهم عمروا الدنيا وأوطنوها عبادي .

فينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ؛ فإذا كان السلطان عادلاً عمرت الدنيا وأمنت الرعايا كما كانت عليه في عهد أزدشير وأفريدون وبهرام كور وكسرى أنوشروان . وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا كما كانت في عهد الضحاك وافراسياب وبرزدكنه الخاطىء وأمثال هؤلاء . وهكذا إلى أن استولى أهل الإسلام ، وغلبوا العجم وأزاحوهم عن بلادهم وعن الملك ، وقويت دولة دين الإسلام ، ببركة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فاعلم وتيقّن أن هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم كانوا أصحاب الدنيا وملوك الأرض ، وأنهم بلغوا من الدنيا مرادهم ، وصرفوا باللذات أوقاتهم ، ومضوا وبقيت أسماؤ هم وسماتهم ، كما عددناه من أفعالهم ، وأوردناه من خصالهم ؛ لتعلم أن الناس إنما هم الحديث الذي يبقى بعدهم ؛ فكل إنسان يُذكر بالذي كان يفعله ، وينسب إليه ما كان يعمله ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

فيجب على الإنسان أن يزرع بذر الإحسان ، وأن ينفي عن نفسه العيوب الفاحشات ، والخطايا الموبقات ، لا سيما الملوك ؛ ليبقى بعدهم حسن الاسم ، وصالح الرسم ، ولئلا يذكر بالقبيح ، وقد حل بالضريح ، كما قال الشاعر :

اهرب من الذنب وتب يا فتى   وإن بدا منك فعد واندم

وانفِ عن نفسك ما شَانَها ومن مساوي الدهر خف تسلم
وبعدك يبقى الذكر لا غيره فكن حديثاً حسناً تغنم

يقال إن ذكر الرجال بعدهم حياتهم الثانية في الدنيا ، فواجب على العقلاء قراءة أخبار هؤلاء الملوك ، والنظر في أحوال هذه الدنيا القليل وفاؤها والكثير بلاؤها ، وأن لا يعلقوا قلوبهم بأمانيها فإنها لا يبقى عليها صالح ، ولا يسلم فيها طالح . وليجتهد العاقل أن لا يكثر خصومه فإن أمر الخصوم صعب هائل ، والباري تعالى حاكم عادل ، لا بد أن ينصف يوم القيامة بين الخصوم ، ويأخذ من الظالم للمظلوم ؛ فلا تساوي الدنيا بأسرها أن تجعل الناس خصوماً لأجلها كما جاء في الحكاية :

حكاية : كان أبو علي بن إلياس إسفهسلار[1] نيسابور ، فحضر يوماً عند الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله ، وكان زاهد زمانه ، وعالم أوانه ، فقعد على ركبتيه بين يديه ، وقال له : عظني ! فقال له أبو علي : أيها الأمير ، أسألك مسألة وأريد الجواب عنها بغير نفاق . فقال : أجل أجيبك . فقال : أيها الأمير أيما أحب إليك المال أو العدو ؟ فقال : المال أحب إليّ من العدو . فقال : كيف تترك ما تحبه بعدك وتصطحب العدو الذي لا تحبه معك ؟ فبكى الأمير ودمعت عيناه وقال : نعم الموعظة هذه !

وجميع الوصايا والحكم تحت هذا الكلام . والخالق سبحانه وتعالى أرسل نبينا محمداً ﷺ أخيراً حتى عادت ببركته دار الكفر دار الإيمان ، وأظهره في أسعد وقت وأوان ، وعمر الدنيا بشريعته ، وختم الأنبياء بنبوّته .

وكان الملك في ذلك الزمان كسرى أنوشروان ؛ وهو الذي فاق ملوك إيران ، بعدله ونصفته ، وتدبيره وسياسته ، وذلك جميعه ببركات نبينا محمد

---

(١) من ألقاب الوظائف التي استعملت في عصر المماليك . وهو مركب من لفظين فارسي وتركي ، إذ أن « اسفه » بالفارسية بمعنى « المقدم » و« سلار » بالتركية بمعنى « العسكر » فيكون معنى اللقب « مقدم العسكر » أي قائد الجيش . (انظر الألقاب الإسلامية ص : ١٥٦ تأليف د . حسن الباشا) .

ﷺ ؛ لأنه ولد في زمانه ، ووجد في أوانه . وعاش أنوشروان بعد مولده سنتين ؛ والنبي ﷺ افتخر بأيامه فقال : ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان . وإنما سماه ملكاً عادلاً لعدله . ولتعلم أن الصيت الحسن والاسم الجيد خير الأشياء . والملوك الذين كانوا قبله كانت همتهم في عمارة الدنيا ، والعدل بين الرعية ، وحفظ الجسم بالسياسة وحسن الإنالة ، وآثار عمارتهم التي أثروها إلى اليوم ظاهرة في العالم ؛ وكل بلد يعرف باسم ملكه لأنهم عمروا المواضع وبنوا الضياع والمزارع ، واستخرجوا القنوات والمصانع ، وأظهروا ما كان خافياً من مياه العيون . وجميع ما ذكرناه كان أنوشروان يعمره بعدله وإنصافه ، مع تجنبه الإسراف في عفافه .

حكاية : يقال إن أنوشروان العادل أظهر يوماً من أيام ملكه أنه مريض ، وأنفذ ثقاته وأمناءه أن يطوفوا أقطار مملكته وأكناف ولايته ، وأن يتطلبوا له لبنة عتيقة من قرية خربة ليتداوى بها ، وذكر لأصحابه أن الأطباء وصفوا له ذلك . فمضوا وطافوا جميع ولايته وعادوا فقالوا : ما وجدنا مكاناً خراباً ولا لبنة عتيقة . ففرح أنوشروان وشكر إلهه وقال : إنما أردت هذا لأجرب ولايتي ، وأخبر مملكتي ، ولأعلم هل بقي في الولاية موضع خراب لأعمره ؛ فالآن لم يبق مكان إلا هو عامر ، فقد تمت أمور المملكة وانتظمت الأحوال ، ووصلت العمارة إلى درجة الكمال .

واعلم أن أولئك الملوك القدماء كانت همتهم واجتهادهم في عمارة ولاياتهم بعدهم . روي أنه كلما كانت الولاية أعمر ، كانت الرعية أوفى وأشكر . وكانوا يعلمون أن الذي قالته العلماء ونطقت به الحكماء ، صحيح لا ريب فيه ، وهو قولهم : إن الدين بالملك ، والملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بعمارة البلاد ، وعمارة البلاد بالعدل في العباد . فما كانوا يوافقون أحداً على الجور والظلم ، ولا يرضون لحشمهم بالخرق والغشم ، علماً منهم أن الرعية لا تثبت على الجور ، وأن الأماكن تخرب إذا استولى عليها الظالمون ، ويتفرق أهل الولايات ويهربون في ولايات غيرها ، ويقع النقص في الملك ويقل في البلاد الدخل ، وتخلو الخزائن من الأموال ، ويتكدر عيش الرعايا ،

لأنهم لا يحبون جائراً ، ولا يزال دعاؤهم عليه متواتراً ، فلا يتمتع بمملكته ، وتسرع إليه دواعي هلكته .

قال مؤلف الكتاب : الظلم نوعان : **أحدهما** : ظلم السلطان لرعيته وجور القوي على الضعيف والغني على الفقير . **والثاني** : ظلمك لنفسك ، وذلك من شؤم معصيتك ، فلا تظلم لِيُرفع عنك الظلم كما جاء في الخبر :

حكاية : يقال إنه كان في بني إسرائيل رجل يصيد السمك ويقوت من صيده أطفاله وزوجته ، فكان في بعض الأيام يتصيد فوقعت في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها وقال : أمضي بهذه السمكة وأبيعها وأخرج ثمنها في نفقة العائلة ؛ فلقيه بعض العوانية في طريقه وقال له : أتبيع هذه السمكة ؟ فقال في نفسه : إن قلت له نعم أخذها بنصف ثمنها ، فقال له : ما أبيعها . فضربه العواني بخشبة كانت معه على صلبه ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً ، فدعا الصياد عليه وقال : إلٓهي خلقتني مسكيناً ضعيفاً ، وخلقته قوياً عنيفاً ، اللهم فخذ بحقي منه في الدنيا فإني لا أصبر إلى الآخرة .

ثم إن الغاصب انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها ، فلما شوتها وضعتها بين يديه على المائدة فمد يده ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزت أصبعه نكزة سلبت قراره ، وأزالت لشدة نكزتها اصطباره ؛ فشكا حاله إلى الطبيب وذكر ما ناله ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع هذه الأصبع لئلا يسري الألم إلى جميع الكف . فقطع أصبعه فانتقل الألم إلى الكف وازداد تألمه وارتعدت من خوفه فرائصه ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع اليد من المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد . فقطع يده من المعصم فانتقل الألم إلى ساعده ، فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع الساعد لئلا يسري الألم إلى الكتف . فقطع الساعد فانتقل الألم إلى الكتف وتوجع ، فخرج هائماً على وجهه داعياً إلى ربه ليكشف ما نزل به ، فرأى شجرة فانكفأ إليها ، فأخذه النوم ؛ فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له : يا مسكين إلى كم تقطع يدك ، امضِ إلى خصمك وأرضه ! فانتبه وتفكر وتذكر وقال : إنني أخذت السمكة

غصباً ، وأوجعت الصياد ضرباً ، وهي التي نكزتني . فنهض وقصد المدينة وطلب الصياد فوجده ، فوقع بين يديه والتمس الإقالة وأعطاه شيئاً من ماله وتاب من فعله ، فرضي عنه خصمه ، ففي الحال سكن ألمه ، وبات تلك الليلة على فراشه وتاب وأقلع عما كان يصنع ، ونام على توبة خالصة ؛ ففي اليوم الثاني تداركته رحمة ربه ورد يده كما كانت بقدرته ، فنزل الوحي على موسى عليه السلام : أن يا موسى وعزتي وجلالي وقدرتي لولا أن الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته .

حكاية : كان موسى عليه السلام يناجي ربه عز وجل على الطور ، فقال في مناجاته : إلهي أرني عدلك وإنصافك . فقال له : أنت رجل عجول حاد جريء لا تقدر أن تصبر . فقال : أقدر على الصبر بتوفيقك . فقال : اقصد العين الفلانية واختف بأزائها وانظر إلى قدرتي وعلمي بالغيوب . فمضى موسى وصعد إلى تل بأزاء تلك العين وقعد مختفياً ؛ فوصل إلى العين فارس ، فنزل عن فرسه وتوضأ من العين وشرب من مائها ، وحل من وسطه همياناً[1] فيه ألف دينار ، فوضعه إلى جانبه وصلى . ثم ركب ونسي الهميان في موضعه وسار ، فجاء صبي صغير فشرب من العين وأخذ الهميان ، فجاء بعد الصبي شيخ أعمى فشرب من الماء وتوضأ ووقف في الصلاة ، فذكر الفارس الهميان فعاد من طريقه إلى العين فوجد الشيخ فلزمه وقال : إني نسيت همياناً فيه ألف دينار في هذا الموضع هذه الساعة وما جاء إلى هذا المكان سواك . فقال الأعمى : تعلم أني رجل أعمى فكيف أبصرت هميانك ؟ فغضب الفارس من كلامه وجذب السيف فضرب الأعمى فقتله ، وفتشه عن الهميان فلم يجده فمضى وتركه . فعند ذلك قال موسى : إلهي وسيدي قد نفد صبري وأنت عادل فعرّفني كيف هذه الأحوال ؟ فهبط جبريل عليه السلام وقال : يا موسى ! الباري تعالى يقول : أنا عالم الأسرار أعلم ما لا تعلم . أما الصبي الصغير الذي أخذ الهميان فأخذ حقه وملكه ، وذلك أن أبا الصبي كان أجيراً لذلك الفارس فاجتمع عليه

---

(١) الهميان : كيس للنفقة يشد في الوسط . جمعها هماين وهمايين .

بقدر ما في الهميان ، فالذي أخذه الصبي حقه . وأما ذلك الأعمى فإنه قبل أن يعمى قتل أبا ذلك الفارس ، فقد اقتص منه ووصل كل ذي حق إلى حقه وعدلنا وإنصافنا دقيق . فلما علم موسى ذلك تحير واستغفر .

وهذه الحكاية أوردناها ليعلم العقلاء ، ويتصور الألبّاء[1] ، أن الله جلّ ذكره لا يخفى عليه شيء ، وأنه ينتصف من الظالم في الدنيا ، ولكن نحن غافلون عما جاءنا لا ندري من أين أتانا .

سئل ذو القرنين فقيل له : أي شيء أنت به أكثر سروراً ؟ فقال : شيئان : أحدهما العدل والإنصاف ، والثاني أن أكافىء من أحسن إلي بأكثر من إحسانه . وقال النبي ﷺ : « **إن الله تعالى يحب الإحسان في كل شيء ، حتى إنه يحب إنساناً إذا ذبح شاة أن يمهي[2] لها المدية ليعجل خلاصها من ألم الذبح** » . وقال موسى عليه السلام : إن الله تعالى لم يخلق شيئاً في الأرض أفضل من العدل ، والعدل ميزان الله في أرضه من تعلق به أوصله الجنة . وقال رسول الله ﷺ : « **إن للمحسنين في الجنة منازل ، حتى المحسن إلى أهله وأتباعه** » . وقال قتادة في تفسير هذه الآية ﴿ **ألا تطغوا في الميزان** ﴾ [الرحمن : ٨] قال : أراد به العدل ، فقال : يا ابن آدم اعدل كما تحب أن يعدل فيك .

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض أوحى إليه أربع كلمات وقال : يا آدم علمك وعلم جميع ذريتك على هذه الكلمات الأربع ، وهي كلمة لي ، وكلمة لك ، وكلمة بيني وبينك ، وكلمة بينك وبين الناس . أما الكلمة التي لي فهي أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً . وأما التي هي لك فأنا أجازيك بعملك . وأما الكلمة التي هي بيني وبينك ، فمنك الدعاء ومني الإجابة . وأما الكلمة التي بينك وبين الناس فهي أن تعدل فيهم وتنصف بينهم** » . وقال قتادة : الظلم ثلاثة أضرب : ظلم لا يغفر لصاحبه ،

---

(١) جمع لبيب .

(٢) أمهى الشفرة : رقّقها . وأمهى الحديد : سقاه الماء .

وظلم لا يدوم ، وظلم يغفر لصاحبه . فأما الذي لا يغفر لصاحبه فهو الشرك بالله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [لقمان : ١٣] . وأما الظلم الذي لا يدوم فهو ظلم العباد بعضهم لبعض . وأما الظلم الذي يغفر لصاحبه فهو ظلم العبد نفسه بارتكاب الذنوب ثم يرجع إلى ربه ويتوب ، فإن الله يغفر له برحمته ، ويدخله الجنة بفضله .

نكتة : الدين والملك توأمان مثل أخوين ولدا من بطن واحد ، فيجب أن يهتم ، ويجتنب الهوى والبدعة والمنكر والشبهة وكل ما يرجع بنقصان الشرع ، وإن علم أن في ولايته من يتهم بدينه ومذهبه أمر بإحضاره وتهديده ، وزجره ووعيده ، فإن تاب ، وإلا أوقع عليه العقاب ونفاه عن ولايته ؛ ليطهر الولاية من إغوائه وبدعته ، وتخلو من أهل الأهواء ، ويعز الإسلام ، ويستديم عمارة الثغور بإنفاذ العساكر والحماة إليها ، ويجتهد في إعزاز الحق ، وإعادة رونق السنة النبوية والسيرة المرضية ؛ لتحمد عند الله طريقته ، وتعظم في الخلق هيبته ، وتخاف سطوته أعداؤه ، ويعلو قدره وبهاؤه ومنزلته ،ويكبر في عين أضداده، ويعظم عند أنداده . ويجب أن يعلم أن صلاح الناس في حسن سيرة الملك ، فينبغي للملك أن ينظر في أمور الرعية ويقف على قليلها وكثيرها ، وعظيمها وحقيرها ، ولا يشارك رعيته في الأشياء المذمومة ، والأفعال المشؤومة . ويجب عليه احترام الصالحين ، وأن يثيب على الفعل الجميل ، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل ، ويعاقب على ارتكاب القبيح ، ولا يحابي من أصر على المعصية ، ليرغب الناس في الخيرات ويحذروا من السيئات . ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المفسد عن فساده ، ويتركه على مراده ، أفسد أموره في سائر بلاده .

وقالت الحكماء : إن طباع الرعية نتيجة طباع الملوك ؛ لأن العامة إنما ينتحلون ويركبون الفساد وتضيق أعينهم اقتداء بالكبراء ، فإنهم يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم . ألا ترى أنه قد ذكر في التواريخ أن الوليد بن عبد الملك من بني أمية كان مصروف الهمة إلى العمارة وإلى الزراعة ؛ وكان سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل وطيب المطعم وقضاء الأوطار والمهمات وبلوغ

الشهوات ؛ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة .

قال محمد بن علي بن الفضل : ما كنت أعلم أن طباع الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين ، واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور ؛ ورأيتهم في زمن سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب المطعم ، حتى كان الرجل يسأل صاحبه أي لون اصطنعت ، وما الذي أكلت ؛ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة ، وتفرغوا لتلاوة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات . ليعلم أن في كل زمن يقتدي الرعية بالسلطان ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله ، من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات وإدراك الإرادات .

حكاية : ذكروا أن في زمن الملك العادل كسرى أنو شروان ابتاع رجل من رجل أرضاً فوجد فيها كنزاً ، فمضى سريعاً إلى البائع وأخبره بذلك ، فقال : إنما بعتك ولم أعلم ما فيها ، والكنز الذي وجدته فهو لك ومبارك عليك ، فقال : لا أريده ولا أطمع في أموال الناس . فترافعا بهذه الدعوى إلى الملك العادل أنو شروان ، ففرح بذلك وقال : هل لكما أولاد ؟ فقال أحدهما : لي ابن ؛ وقال الآخر : لي بنت . فقال أنو شروان : أحب أن يكون بينكما قرابة ووصلة ، وأن تزوجا الولد بالبنت وتنفقا هذا الكنز في جهازهما ، ليكون لكما ولولديكما . ففعلا ما أمر به ، وتراضيا ما رسم لهما . ولو أن الرجلين كانا في زمن سلطان جائر لقال كـل واحد منهما الكنز لي ، ولكنهما لما علما أن ملكهما عادل طلبا الحق ، وآثرا الصدق .

وقالت الحكماء : الملك كالسوق ، فكل أحد يحمل إلى السوق ما يعلم أنه فيه نافق ، وما يعلم أنه كاسد لا يحمله إلى ذلك السوق . والرجلان اللذان وجدا الكنز وترافعا إلى السلطان علما أن الزهد والعدل والصدق يعز عند الملك ، وأن الحق له عنده نَفاق[1] ؛ فلذلك حملاه إليه ، وعرضاه عليه . وأما الآن في هذا الزمان فكل ما يجري على يد أمرائنا وألسنة ولاتنا فهو جزاؤ نا

---

(١) نفاق (فتح النون) : رواج .

واستحقاقنا . كما إننا رديئو الأعمال ، قبيحو الأفعال ، ذوو خيانة وقلة أمانة . فأمراؤنا ظلمة جائرون ، وغشمة معتدون . « كما تكونوا يول عليكم » فقد صح بهذا الحديث أن أفعال الخلق عائدة إلى أفعال الملك ؛ أما ترى أنه إذا وصف بعض البلاد بالعمارة ، وأن أهله في أمان وراحة ودعة وغبطة ، فإن ذلك دليل على عدل الملك وعقله وسداده وحسن نيته في رعيته ومع أهل ولايته ، وأن ليس ذلك من الرعية ؟ فقد صح ما قالته الحكماء « الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم » . وقد جاء في الخبر أيضاً « الناس على دين ملوكهم » . وكان من سياسة أنوشروان أن بحيث لو أن رجلاً ألقى في مكان حملاً من ذهب وبقي مهما بقي في موضعه لم يقدر أحد على إزالته من مكانه إلا صاحبه . وكان يونان وزير أنوشروان متقدماً عنده فقال له يوماً : أيها الملك لا تركن للأشرار فتخرب ولايتك وتفقر رعيتك ، فيصير حينئذ ملكك إلى الخراب وسلطانك إلى الفقر ، ويقبح اسمك في الدنيا . فكتب أنوشروان إلى عماله : إن أخبرت أنه قد بقي في جميع مملكتي أرض خراب سوى أرض سبخة لا تقبل الزرع صلبت عامل تلك الأرض .

وخراب الأرض من شيئين : أحدهما عجز الملك ، والثاني جوره . وكان الملوك في ذلك الزمان يتفاخرون بالعمارة ويتحاسدون على اجتماع المملكة .

حكاية : أرسل ملك هندوستان رسولاً إلى الملك العادل كسرى أنوشروان فقال : أنا أولى بالملك منك ، فأنفذ لي خراج ولايتك ! فأمر أنوشروان بإنزال الرسول ، ثم جمع في اليوم الثاني أرباب دولته وأعيان مملكته ، وأذن للرسول في الدخول إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : اسمع جواب رسالتك ! ثم أمر أنوشروان بإحضار صندوق ، ففتحه وأخرج منه صندوقاً صغيراً ، وأخرج منه قبضة من كبر[1] وسلمها إلى الرسول وقال : هل في بلادكم من هذا ؟ قال : نعم من هذا عندنا كثير . فقال أنوشروان : ارجع وقل لملك الهند يجب عليك أن تعمر ولايتك فإنها خراب ، ثم تطمع بعد ذلك في ولاية

---

(١) الكبر (بفتح الكاف والباء) : نبات معمر من الفصيلة الكبرية ، ينبت طبيعياً ويزرع .

عامرة ، فإنك لو طفت جميع ولايتي وطلبت أصلاً واحداً من كبر لم تجده ، ولو سمعت أن في موضع من ولايتي أصلاً واحداً من كبر لصلبت تلك الولاية .

على الملك أن يسلك طريق الملوك الذين تقدموه ، ويعمل على سننهم ، ويقرأ كتب مواعظهم وقضاياهم ، فإنهم كانوا أطول أعماراً ، وأكثر تجارب واعتباراً ، وإنهم فرقوا بين الجيد والرديء ، وعرفوا الجليّ من الخفي . وكان أنو شروان مع حسن سيرته يقرأ كتب مواعظهم ، ويطلب استماع حكاياتهم ، ويمضي على مناهجهم وسننهم ؛ وملوك هذا الزمان أجدر أن يفعلوا ذلك .

حكاية : سأل أنو شروان العادل يوماً وزيره يونان وقال : أريد أن تخبرني بسيرة الملوك المتقدمين ؛ فقال له يونان : تريد أن أمدحهم بثلاثة أشياء أم بشيئين أم بشيء واحد ؟ فقال أنو شروان : امدحهم بالثلاثة ! فقال يونان ما وجدت لهم في شغل من الأشغال ولا عمل من الأعمال قط كذباً ، ولا رأيت لهم بشيء جهلاً ، ولا رأيت لهم في حال من الأحوال غضباً . فقال أنو شروان : امدحهم بالشيئين ! فقال يونان : كانوا دائماً يسارعون إلى الخير وعمله ، وكانوا دائماً يحذرون من أعمال الشر . فقال : امدحهم بشيء واحد ! فقال : كانت سلطنتهم وجرأتهم على أنفسهم أكثر مما كانت على غيرهم . فطلب أنو شروان الكأس وقال : ولهذا الكأس سرور بالكرام الذين يأتون بعدنا ويملكون تاجنا وتختنا ويذكروننا كما نذكر نحن من تقدمنا .

وأشقى الناس من اغتر بملكه وعمر الدنيا وهو لا يدري كيف ينبغي أن يعيش فيها ، فيعبر دنياه بالتعب ، ويحصل في أخراه بالندم السرمد ، والعذاب المؤبد . وإنما كان قصد أولئك الملوك واجتهادهم في عمارة الدنيا ليبقى فيها بعدهم طيب الذكر ، مدى الأيام والدهر ، كما جاء في الحكاية :

حكاية : كان لأنو شروان كرم يعرف بهزاركام ، فاجتمع يوماً فيه قيصر ملك الروم ويعفورجين ملك هندوستان في ضيافة أنو شروان ، فتكلم كل واحد منهم بكلمة حكمة ؛ فقال قيصر الروم : ليس شيء في هذه الدنيا أجود من فعل

الخير والاسم الصالح والذكر الطيب ، فإنه يذكر به صاحبه دائماً فيقال بعده لم لا نكون نحن مثله . فقال أنو شروان : تعالوا حتى نفعل الخير ونتفكر في الخير . فقال قيصر : إذا تفكرت في الخير عملت الخير ، وإذا عملت الخير نلت المراد . فقال يعفورجين : أعاذنا الله من فكرة إن نحن أظهرناها استحييناها ، وإن ذكرناها خجلنا ، وإن أخفيناها ندمنا . فقال قيصر لأنو شروان : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أحب الأشياء إلي أن أقضي حاجة من رآني أهلاً لقضاء حاجته . فقال قيصر : بل أنا أحب أن لا أذنب حتى لا أخاف ملوكاً . كان هذا كلامهم .

انظر كيف كانت سيرتهم مع رعيتهم يا سلطان الإسلام ؛ فيجب أن تسمع أقوال هؤلاء الملوك ، وتنظر أعمالهم ، وتقرأ حكاياتهم من الكتب وما ينظر فيها من نعت عدلهم وإنصافهم ، وحسن سيرتهم ، وطيب خبرهم وذكرهم الجاري على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة .

كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من العدل والسياسة إلى حد أقام فيه الحد والعقاب على ولده حتى مات . وكان إذا أنفذ عمالاً إلى أعمال قال لهم : اشتروا دوابكم وأسلحتكم من أرزاقكم ، ولا تمدوا أيديكم إلى بيت مال المسلمين ، ولا تغلقوا أبوابكم دون أرباب الحوائج . قال عبد الرحمن بن عوف : دعاني عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة ، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم . فمضيت معه فلما وصلنا قال لي : نم أنت ! ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته . وقال عمر رضي الله عنه : يجب علي أن أسافر لأقضي حوائج الناس في أقطار الأرض لأن بها ضعفاء لا يقدرون على قصدي في حوائجهم لبعد المكان ، فينبغي أن أطوف البلاد لأشاهد أحوال العمال وأسبر سيرتهم ، وأقضي حوائج المسلمين فلا يكون في سِنِي عمر أبرك من هذه السنة .

حكاية : قال زيد بن أسلم : رأيت ليلة عمر بن الخطاب يطوف مع العسس ، فتبعته وقلت : أتأذن لي أن أصاحبك ؟ قال : نعم . فلما خرجنا من

المدينة رأينا ناراً من بعد فقلنا ربما يكون قد نزل هناك مسافر ، فقصدنا النار فرأينا امرأة أرملة ومعها ثلاثة أطفال وهم يبكون ؛ وقد وضعت لهم قدراً على النار وهي تقول : إلّهي أنصفني من عمر ، وخذ لي منه بالحق ! فإنه شبعان ونحن جياع . فلما سمع عمر بن الخطاب ذلك تقدم وسلم عليها وقال : أتأذنين أن أدنو إليك ؟ فقالت : إن دنوت بخير فبسم الله . فتقدم وسألها عن حالها وحال أطفالها ، فقالت : وصلت وهؤلاء الأطفال معي من مكان بعيد ، وأنا خائفة وهم جياع ، وقد بلغ مني ومنهم الجهد والجوع ، وقد منعهم عن الهجوع . فقال عمر : وأي شيء في هذه القدر ؟ فقالت : تركت فيها ماء لأشاغلهم به ليظنوا أنه طعام فيصبروا . قال زيد : فعاد أمير المؤمنين وقصد دكان الدسم فابتاع منه دسماً ، ومضى إلى دكان الدقيق فابتاع منه ملء جراب ، ثم وضع الجميع على كاهله ومضى به يطلب المرأة والأطفال ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ناولنيه لأحمله عنك ! فقال : إن حملته عني فمن يحمل عني ذنوبي ، ومن يحول بيني وبين دعاء تلك المرأة والأطفال عليّ ؟ وجعل يسعى وهو يبكي إلى أن وصلنا إلى المرأة ، فقالت المرأة : جزاك الله عنا خير الجزاء . فأخذ عمر جزءاً من الدقيق وشيئاً من الدسم فوضعهما في القدر وجعل يوقد النار ، وكلما أرادت أن تخمد نفخها والرماد يسقط على وجهه ومحاسنه ، إلى أن انطبخت القدر فوضع الطبيخ في القصعة وقال للمرأة : كلي ! فأكلت المرأة والأطفال ، فقال عمر : أيتها المرأة لا تدعين على عمر ، فإنه لم يكن عنده منك ولا من أطفالك خبر .

وأول من دُعي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فإن أبا بكر رضي الله عنه دعوه بخليفة رسول الله ﷺ ، فلما وصل الأمر إلى عمر كانوا يقولون يا خليفة خليفة رسول الله ، فكان يطول ذلك فقال : يا أيها المؤمنون سموني أميراً ، فإني أميركم وإن دعوتموني أمير المؤمنين فأنا ذلك عمر بن الخطاب .

حكاية : سئل خازن بيت المال : هل انبسط عمر في بيت المال ؟ فقال : كان في أول الأمر إذا لم يكن له شيء يتقوت به أخذ قليلاً برسم القوت ، فإذا حصل عنده شيء أعاده إلى بيت المال . وخطب يوماً فقال : أيها الناس قد

كان الوحي ينزل في عهد رسول الله ﷺ فكنا نعرف به ظاهر الناس وباطنهم وجيدهم ورديئهم ، والآن قد انقطع الوحي عنا ، فنحن ننظر من كل أحد إلى علانيته والله أعلم بسريرته ، وأنا على الجهد وعمالي أن لا نأخذ شيئاً بغير حق ولا نعطي شيئاً بغير حق .

فإن شئت أن تعلم أن عدل السلطان وتقيته سبب لجميل ذكره ، ونيل فخره ، فانظر في أخبار عمر بن عبد العزيز فإنه لم يكن لأحد من بني أمية وبني مروان مثل مدحه ومحمدته ، ولا يدعي إلا له ، ولا يثني إلا عليه ، لأنه كان عادلاً تقيّاً كريماً ، حسن السيرة تقي السريرة .

حكاية : كان في زمن عمر بن عبد العزيز قحط عظيم ، فوفد عليه قوم من العرب ، فاختاروا منهم رجلاً لخطابه فقال ذلك الرجل : يا أمير المؤمنين إنا أتيناك من ضرورة عظيمة ، وقد يبست جلودنا على أجسادنا لفقد الطعام ، وراحتنا في بيت المال ، وهذا المال لا يخلو من ثلاثة أقسام : إما أن يكون لله ، أو لعباد الله ، أو لك ؛ فإن كان لله فالله غني عنه ، وإن كان لعباد الله فآتهم إياه ، وإن كان لك فتصدق به علينا إن الله يجزي المتصدقين . فتغرغرت عينا عمر بن عبد العزيز بالدموع وقال : هو كما ذكرت . وأمر بحوائجهم فقضيت من بيت المال ؛ فهمّ الأعرابي بالخروج فقال له عمر : أيها الإنسان الحر ، كما أوصلت إليّ حوائج عباد الله وأسمعتني كلامهم ، فأوصل كلامي وارفع حاجتي إلى الله تعالى ! فحول الأعرابي وجهه قبل السماء وقال : إلّهي اصنع مع عمر ابن عبد العزيز كصنيعه في عبادك ! فما استتم الأعرابي كلامه حتى ارتفع غيم فأمطر مطراً غزيراً ، وجاء في المطر بردة كبيرة فوقعت على آجرة فانكسرت ، فخرج منها كاغد[1] عليه مكتوب : « هذه براءة من الله العزيز لعمر بن عبد العزيز من النار » .

حكاية : يقال إن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلاً في قصص الرعية وروزنامجاتهم في ضوء السراج ، فجاء غلام له فحدثه في سبب كان يتعلق

---

(١) الكاغد : القرطاس .

ببيته ، فقال له عمر : أطفىء السراج وحدثني ، فإن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، فلا يجوز استعماله إلا في أشغال المسلمين . كذا يكون حذر السلطان وتوقيه إذا كان عادلاً كما جاء في الحكاية :

حكاية : كان لعمر بن عبد العزيز غلام وكان خازناً لبيت المال ، وكان لعمر بنات فجئنه يوم عرفة وقلن له : غداً العيد ، ونساء الرعية وبناتهم يلمننا ويقلن أنتن بنات أمير المؤمنين ونراكن عريانات ، لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها . وبكين عنده ، فضاق صدر عمر ، فدعا غلامه الخازن وقال له : أعطني مشاهرتي لشهر واحد ؛ فقال الخازن : يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفاً ؟ أتظن أن لك عمر شهر فتأخذ مشاهرة شهر ؟ فتحير عمر وقال : نِعْمَ ما قلت أيها الغلام ، بارك الله فيك ! ثم التفت إلى بناته وقال : اكظمن شهواتكن ، فإن الجنة لا يدخلها أحد إلا بمشقة .

حكمة : لما كان الأمراء كذلك كان حواشيهم وخدمهم على قاعدتهم ، والعدل التام هو أن تساوي بين المجهول الذي لا يعرف وبين المحتشم صاحب الجاه المعروف في مقام واحد في الدعاوى ، وتنظر أيضاً بعين واحدة ، ولا تفضل أحدهما على الآخر لأجل أن أحدهما فقير والآخر غني ، فإن الجوهر والخزف في الآخرة بسعر واحد ، ولا يحرق عاقل نفسه بالنار ، لحشمة الأغيار . وإذا كان لرجل ضعيف على سلطان من السلاطين دعوى ، فينبغي أن يقوم من صدر مملكته ويعمل بحكم الله تعالى ، وينصف ذلك العبد الضعيف ، ويرضيه ولا يحيف عليه ، ولا يستحي من الحق ،ويعمل بقوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ [النحل :٩٠] وحقيقة ذلك إن كان للملك على آخر حق ، أن يسامحه ويمن به عليه ، ويأمر عماله الثقات أن يقتدوا بمثاله ويعملوا بسيرته ، لئلا يُسأل عنه يوم القيامة ؛ فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « **كل راع يُسأل عن غنمه ، وكل إنسان يُسأل عن رعيته** » . والحال على هذه الصفة والمآل .

حكاية : يقال إن إسماعيل بن أحمد أمير خراسان نزل بمَرْو . وكان رسمه

في كل موضع ينزله أن يأمر المنادي أن ينادي في العسكر إن الجند ما لهم في الرعية شغل . فمضى رجل من الخربندية ودخل مبطخة قوم فتناول من الطبيخ قدراً يسيراً ، فجاءوا إلى باب الملك واستغاثوا ، فأمر بإحضاره فأحضر بين يديه فقال له : ألك علينا أجرة ؟ فقال : نعم . فقال : أما سمعت المنادي ؟ فقال : بلى ، قد سمعته . فقال : ما حملك على أن آذيت رعيتي ؟ قال : أخطأت . قال : لا أقدر لأجل خطئك على دخول النار . ثم أمر به فقطعت يده .

حكاية : يحكى عن إسماعيل الساماني في « كتاب سير الملوك » أنه كان ينزل بحذاء موليان ، وكان يصل كل وقت إلى مدينة كغد ويأمر المنادي أن ينادي في الناس ، وكان يرفع الحجاب ويزيح البواب ليجيء كل من له ظلامة ويقف على جانب البساط ويخاطبه ويعود مقضي الحاجة . وكان يقضي بين الخصوم مثل الحكام إلى أن تفي الدعاوى ، ثم يقوم من موضعه ويقبض على محاسنه ويوجه وجهه نحو السماء ويقول : إلٓهي هذا جهدي وطاقتي قد بذلتهما ، وأنت عالم الأسرار تعلم نيتي ولا أعلم على أي عبد من عبادك حفت ، ولا لأيهم ظلمت ، وما أنصفت أنا واحداً من أصحابي ؛ فاغفر لي يا إلٓهي من ذلك ما لا أعلم . فلما كان نقي النية، جميل الطوية ، لا جرم علا أمره ، وارتفع قدره ، وكان عسكره ألف فارس معتدين بالسلاح ، مقنعين بالحديد وببركة ذلك العدل والإنصاف ، ظفره الله تعالى بعمرو بن ليث حتى قبض عليه وفتح خراسان . ثم إن عمرو بن ليث أنفذ إليه من السجن فقال : لي بخراسان أموال كثيرة وكنوز موفورة ، وأنا أسلم الجميع إليك وأطلقني من السجن . فلما سمع إسماعيل ذلك ضحك وقال : إلى الآن لم يستقم معي عمرو بن ليث ، يريد أن يجعل المظالم التي احتقبها ، والمآثم التي ارتكبها في عنقي ويتخلص من ثقل أوزارها في القيامة ؛ قولوا له : مالي في مالك حاجة . ثم إنه أخرجه من السجن وأنفذه رسولاً إلى بغداد ، فنال من أمير المؤمنين الخلع والتشريف ؛ وجلس إسماعيل في مملكته بخراسان آمناً فارغ البال ، حسن الحال . وبقيت المملكة في عنصر السامانية مائة وثلاثين سنة، فلما انتقل الأمر إلى أصاغرهم وصبيانهم ظلموا الخلق وتعدوا الحق فزال ملكهم . قال رسول الله ﷺ : « **عدل السلطان يوماً**

واحداً خير من عبادة سبعين سنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **نصفة المظلوم زكاة العقل** » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الغم** » كما قال الشاعر :

تقطب منك طلق الوجه يوماً　　ترى بالعدل عن جور جزاء
فقل للناس ما تهوى استماعاً　　ولا تقتل إن اخترت البقاء

جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان ينظر يوماً فرأى شيئاً ينزل من السماء مثل النخالة فقال : إلّهي ما هذا ؟ هذه لعنتي أنزلها على بيوت الجائرين .

حكاية : لما قعد أنوشروان في المملكة كتب إليه يونان الوزير فقال : اعلم أيها السلطان أن أمور الملك على ثلاثة أشياء : إما أن ينصف رعيته ولا ينتصف منهم وذلك هو الدرجة العليا ، أو ينتصف وينصف وهي الدرجة الوسطى ، أو ينتصف ولا ينصف وهي الدرجة السفلى ؛ فانظر أيها الملك إلى هذه الثلاثة واختر أيها أردت ، وأنا أعلم أن مولانا يختار الأولى كما قال الشاعر :

من أنصف الناس ولم ينتصف　　بفضله منهم فذاك الأمير
ومن يرد إنصافهم مثلما　　أنصف أضحى ماله من نظير
ومن يرد إنصافه وهو لا　　ينصفهم فهو الدنيء الحقير

نصيحة وموعظة : دخل شبيب بن شيبة يوماً على المهدي فقال : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك الدنيا فأعط رعيتك قسطاً من طيب عيشك ! فقال المهدي : وما الذي ينبغي أن تُعطى الرعية ؟ فقال : العدل ، فإنه إذا نامت الرعية في أمن منك نمت آمناً في قبرك . وقال : احذر يا أمير المؤمنين من يوم لا ليلة بعده ، ومن ليلة لا يوم بعدها ، واعدل ما استطعت فإنك تجازى بالعدل عدلاً وبالجور جوراً ، وزين نفسك بالتقوى فإنك في الحشر لا يعيرك أحد زينته ، كما قال الشاعر :

فحل نفسك بالتقوى وزينها　　فلن يعار تقي في الناس من رجل

وليس تبلى يد المعروف فاحظ بها تربح كثيراً ورأس المال لم يزل

حكاية : وصل كتاب من قيصر ملك الروم إلى الملك العادل أنو شروان يقول : بماذا يكون دوام الملك ؟ فكتب إليه في الجواب جواب ذلك : إني لا أعمل شيئاً بجهالة ، وإذا أمرت بأمر تممته ولا أتركه لخوف ولا لرجاء . يريد أنني إذا أمرت بشيء لا أبطله لأجل من يرجوني أو يخافني ، وأن لا أغير شيئاً أمرت به .

حكمة : سئل أرسطاطاليس : هل يجوز أن يُدعى أحد ملكاً غير الله تعالى ؟ فقال : من وجدت فيه هذه الخصال وإن كانت عارية : العلم والعدل والسخاء والحلم والرقة وما ناسبها ، لأن الملوك إنما كانوا ملوكاً بالظل الإلّهي ، وضياء الحس ، وطهارة النفس ، وتزايد العقل والعلم ، وقدم الدولة ، وشرف الأصل ، والدولة التي كانت في محتدهم وأصولهم ، فبذلك كانوا ملوكاً وسلاطين .

ومعنى قولهم (فرابرذي) وهو الظل الإلّهي ، يظهر في ستة عشر شيئاً : العقل ، والعلم ، وحدة الذكاء ، وتدارك الأشياء ، والصور التامة ، والألمعية ، والفروسية ، والشجاعة ، والإقدام ، والتأني ، وحسن الخلق ، وإنصاف الضعيف ، ومحبة الرعية ، وإظهار الزعامة ، والاحتمال ، والمداراة في مكانها ، والرأي ، والتدبير في الأمور ، والإكثار من قراءة الأخبار ، وحفظ سير الملوك ، والفحص عن الأحوال والأعمال التي اعتمدها الملوك وعملوا بها ؛ لأن هذه الدنيا بقية دول المتقدمين الذين تملكوها ، ثم مضوا وانقضوا وصاروا تذكاراً للناس يذكر كل إنسان بفعله . وللآخرة كنز ، وللدنيا كنز ؛ فكنز هذه الدنيا حسن الثناء وطيب الذكر ، وكنز الآخرة العمل الصالح واكتساب الأجر .

حكمة : كان الإسكندر في بعض الأيام قد ركب في مركب مملكته ، فقال رجل من مقدمي عسكره : إن الله تعالى أعطاك ملكاً عظيماً ، فاستكثر من النساء لتكثر أولادك فتذكر بهم بعدك . فقال : ليس ذكر الرجال بعدهم بكثرة

الأولاد ، لكن بحسن السيرة وعدل النية ، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز أن تغلبه النساء .

حكمة : سأل الإسكندر أرسطاطاليس : أيما أفضل للملوك الشجاعة أم العدل ؟ فقال أرسطاطاليس : إذا عدل السلطان لم يحتج إلى شجاعة .

حكاية : عزل الإسكندر عاملاً من عماله من عمل كثير خطير ، وولاه أمر عمل خفيف حقير ، فجاء في بعض الأيام ذلك الرجل إلى الدركاه[1] ، فقال له الاسكندر : كيف تجد عملك ؟ فقال : أطال الله بقاء الملك ! الرجال لا تشرف بالأعمال ، بل الأعمال تشرف بالرجال ، وذلك بحسن السيرة والإنصاف والعدل وتجنب الإسراف . فاستحسن الإسكندر مقاله ، وأعاد إليه أعماله .

حكمة : قال سقراط : العالم مركب من العدل ، فإذا جاء الجور لا يثبت ولا يستقر .

حكمة أخرى : سئل بزرجمهر فقيل : بأي شيء يظهر عز الملك ؟ فقال : بثلاثة أشياء : حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، وإكرام العلماء وإعزازهم ، وحب أهل الفضل ؛ لأنه كلما جار السلطان خاف أهل الأطراف ، وإن كانت نعمهم كثيرة فإنها مع الخوف لا تنساغ ، وإن كانت النعم قليلة انساغت مع الأمن كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إنه انقطع رجل من قافلة الحج وضل الطريق ووقع في الوجل ، فجعل يسير إلى أن وصل إلى خيمة ، فرأى امرأة عجوزاً ورأى على باب الخيمة كلباً نائماً ، فسلم الحاج على العجوز وطلب منها طعاماً ، فقالت العجوز : امض إلى ذلك الوادي واصطد من الحيات بقدر كفايتك لأشوي لك

---

(١) لفظ فارسي معناه الساحة أو الفناء أو الحوش المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان أو قلعة الجبل ، والجمع دركاوات . (انظر : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٥) .

منها وأطعمك . فقال الرجل : أنا لا أجسر أن أصطاد الحيات . فقالت العجوز : أنا أتصيد معك . فلما مضت وإياه وتبعهما الكلب فأخذا من الحيات بقدر كفايتهما ، فأتت العجوز وجعلت تشوي له الحيات ، فلم ير الحاج من الأكل بدّاً ، وخاف أن يهلك من الجوع والهزال ، فأكل ؛ ثم إنه عطش وطلب منها الماء ليشرب ، فقالت له : دونك والعين ، فاشرب ! فمضى إلى العين ، فوجد ماء مالحاً مرّاً ، ولم يجد من شربه بدّاً ، فشرب وعاد إلى العجوز وقال : أعجب منك أيتها العجوز ، ومن مقامك في هذا الموضع ! فقالت : كيف تكون بلادكم ؟ فقال : يكون في بلادنا الدور الرحيبة الواسعة ، والفواكه اللذيذة اليانعة ، والمياه العذبة ، والأطعمة الطيبة ، واللحوم السمينة ، والغنم الكثيرة ، والعيون الغزيرة . فقالت العجوز : قد سمعت هذا كله ، فقل لي هل تكونون تحت يد سلطان يجور عليكم ، وإذا كان لكم ذنب أخذ أموالكم واستأصل أحوالكم وأخرجكم عن مسرتكم ؟ فقال : قد يكون ذلك . فقالت : إذاً يعود ذلك الطعام اللطيف والعيش الظريف والنعم اللذيذة مع الجور والظلم سمّاً ناقعاً ، وتعود أطعمتنا مع الأمن درياقاً نافعاً ؛ أو ما سمعت أن أجل النعم بعد نعمة الإسلام الصحة والأمن ؟ والأمن إنما يكون من سياسة السلطان ، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة ، وأن يكون مع السياسة عادلاً ؛ لأن السلطان خليفة الله ، ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كانوا بعيداً . وسلطان هذا الزمان ينبغي أن يكون له أوفى سياسة وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين ، فإن زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء ، وأهل القسوة والشحناء . وإذا كان السلطان منهم ضعيفاً أو كان غير ذي سياسة وهيبة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود إلى الدين والدنيا . وفي الأمثال : جور السلطان مائة عام ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة . وإذا جارت الرعية سلّط الله عليها سلطاناً جائراً وملكاً قاهراً كما جاء في الحكاية :

حكاية : أُعطي الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض الأيام قصة مكتوب

فيها « اتق الله ولا تجر على عباد الله كل هذا الجور » فرقى الحجاج المنبر وكان فصيحاً فقال : أيها الناس إن الله سلطني عليكم بأعمالكم ، فإن أنا مت فلا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة ، فإن الله تعالى خلق أمثالي كثيراً ، وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر شرّاً مني ؛ قال الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

حكمة : سئل بزرجمهر : أي الملوك أطهر ؟ فقال : من أمنه الطاهرون ، وخاف منه الخطاؤ ون . وأما السلطان الذي لا سياسة له فليس له في أعين الناس خطر ولا محل ، بل يكون الخلق عليه ساخطين ثم يذكرونه كل وقت بالقبيح ؛ ألا ترى أن الإنسان إذا كان من عوام الولاية وتولى عليها وأراد أن يطلب الحساب من الرعية أول ما يكلمهم بالهيبة ويظهر جاهه بالسياسة لعلمه أن الرعية إنما ينظرونه بالعين الأولى ؟

وفي هذا الباب حكاية عجيبة : كان لأبي سفيان بن الحارث ولد ، وكان يدعى زياد ابن أبيه ، وكان قد ولد في أيام الجاهلية ونفاه وتبرأ منه وقال ما هو لي بولد ؛ فلما وصل الأمر إلى معاوية قربه وأدناه وولاه ولاية العراق ، فلما وصل إلى العراق وجد أهل العراق قوماً عابثين يفسدون ويسرقون ، فقصد زيارة المسجد الجامع ورقى المنبر وخطب خطبة ثم قال بعد خطبته : والله لئن خرج أحد بعد العشاء الآخرة لآخذن رأسه عن جسده فليعلم الشاهد الغائب . ثم أمر منادياً بذلك ثلاثة أيام ، فلما كان في الليلة الرابعة خرج زياد وقد مضى من الليل ثلثه ، فركب وجعل يطوف محال البلد ، فرأى أعرابيّاً ومعه غنم له وهو قائم ، فسأله زياد : ما تصنع ها هنا ؟ فقال : أتيت مساء ولم أجد موضعاً أستقر فيه ، فنزلت مكاني إلى أن أصبح وأبيع غنمي . فقال له زياد : أنا أعلم أنك صادق ، وإن أطلقتك خفت أن يذيع الخبر عني أن زياداً يقول ما لا يفعل ، فتفسد سياستي وتنكسر هيبتي ، والجنة خير لك مما هنا . ثم ضرب عنقه وجعل يسير ، فكل من رآه ضرب عنقه وحز رأسه ، فلما أصبح من الغد كان قد أخذ رؤ وس ألف وخمسمائة رجل ، ثم جعلها على باب داره مثل البيدر ، فتهوله

الناس وجزعوا لما رأوا من فعله . فلما كان الليل خرج وطاف فلقي ثلاثمائة رجل فأخذ رؤوسهم ، فلم يقدر أحد بعد ذلك أن يخرج من منزله بعد العشاء الآخرة . فلما كان يوم الجمعة رقى المنبر وقال : أيها الناس لا يغلق أحد منكم دكانه بالليل ، ومهما سرق منكم كان غرامته علي . فلم يجسر أحد منهم أن يغلق دكانه تلك الليلة ، فلما كان من الغد أتاه رجل صيرفي وقال : قد سرق مني البارحة أربعمائة دينار ؛ فقال له زياد : تقدر أن تحلف على صحة قولك ؟ فقال : نعم . فحلفه وغرم له أربعمائة دينار وقال له : اكتم هذا الأمر ولا تشعر به أحداً ! فلما كان في الجمعة الثانية اجتمع الناس لصلاة الجمعة وصعد زياد المنبر وقال : اعلموا أنه قد سرق من دكان الصيرفي أربعمائة ديناراً وأنتم كلكم حاضرون ، فإن رددتم ذلك فقد عاد إلى الرجل ماله ، وإن لم تردوا ذلك فقد أمرت أن لا يمكن أحد منكم أن يخرج من الجامع وأمرت بقتلكم في هذه الساعة . ففي الحال لزموا من كان يتهمونه بالسرقة وقدموه بين يديه ، فرد الذهب الذي كان سرقه ، فأمر بصلبه في الحال . ثم إنه سأل بعد ذلك : أي محلة في البصرة ليس فيها أمن ؟ فقيل : محلة بني الأزد . فأمر أن يترك فيها ثوب ديباج له قيمة ثقيلة ليلاً بحيث لا يراه أحد ؛ فبقي أياماً ملقى بحاله ، ولم يكن لأحد جسارة أن يقربه ولا يرفعه من مكانه ، فقال له أقاربه بعد ذلك : إن السياسة خير الأشياء ، إلا أنك لم ترحم المسلمين أولاً وأهلكت خلقاً كثيراً ؛ فقال : قد أخذت عليهم الحجة قبل ذلك بثلاثة أيام ، ومن شؤم مخالفتهم لم ينتهوا ، والذي أصابهم كان من شؤم أعمالهم .

* * *

فصل

ولا ينبغي للسلطان أن يشتغل دائماً بلعب الشطرنج والنرد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد ؛ لأن ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية ؛ فإن لكل عمل وقتاً ، فإذا فات الوقت عاد الربح خسراناً ، فإن الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام : قسم منها لطاعة الله وعبادته ، وقسم للنظر في الرعية وإنصاف المظلومين والجلوس بين العلماء والعقلاء ولتدبير الأمور وسياسة الجمهور وتنفيذ المراسم والأوامر وكتابة الكتب وإرسال الرسل ، وقسم للأكل والشرب والتزود من الدنيا وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور ، وقسم للصيد ولعب الشطرنج والكرة وما أشبه ذلك .

حكمة : يقال إن بهرام كور قسم نهاره قسمين وجعله شطرين ، ففي النصف الأول كان يقضي حوائج الناس ، وفي النصف الثاني كان يطلب الراحة . ويقال إنه في جميع عمره ما اشتغل يوماً تامّاً بعمل واحد .

وكان أنو شروان العادل يأمر أصحابه الثقات أن يصعدوا إلى أعلى مكان في البلد فينظروا إلى بيوت الناس ، فكل بيت لا يخرج منه دخان نزلوا وسألوا عن حال أولئك القوم وما خطبهم ، فإن كانوا في غم أعلموا الملك ، فكان يحمل غمومهم ويزيل همومهم . ويجب على السلطان أن لا يرضى لغلمانه أن يتناولوا شيئاً من الرعية بغير حق كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إنه كان قد ولى أنو شروان عاملاً ، فأنفذ العامل إليه زيادة في الخراج ثلاثة آلاف درهم ، فأمر أنو شروان بإعادة الزيادة إلى أصحابها ، وأمر بصلب العامل . وكل سلطان أخذ من الرعية شيئاً بالجور والغصب وخزنه

في خزائنه كان مثله كمثل رجل عمل أساس حائط ولم يصبر حتى يجف ثم وضع البنيان عليه فلم يبق الأساس ولا الحائط . وينبغي للسلطان أن يأخذ ما يأخذه من الرعية وأن يهب ما يهبه بقدره ؛ لأن لكل واحد من هذين حدّاً محدوداً كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إن المأمون ولى يوماً أربعة نفر أربع ولايات ، فأعطى لواحد منهم منشور خراسان وخلع عليه خلعة بثلاثة آلاف دينار . ثم أعطى الآخر منشوراً بخوزستان وخلع عليه خلعة بثلاثة آلاف دينار . وولى الآخر ولاية مصر وخلع عليه خلعة مثلها . وولى الآخر ولاية أرمينية وأعطاه خلعة مثلها . ثم استدعى يومئذ موبذان وقال : يا دهقان[1] هل كان لملوك العجم مثل هذه الخلع ؟ فإنه بلغني أن خلعهم ما كانت تبلغ أكثر من أربعة آلاف درهم . فقال الموبذان : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! كان لملوك العجم ثلاثة ليست لكم : (أحدها) أنهم كانوا يأخذون ما يأخذونه من الرعية بقدر ويعطونـه بقدر (والثاني) أنهم كانوا يأخذون من موضع يجوز الأخذ منه ويعطون لمن ينبغي أن يعطى (والثالث) أنهم ما كان يخافهم إلا أهل الريب . فقال المأمون : صدقت ؛ ولم يعد عليه جواباً .

ولأجل هذا لما كشف المأمون تربة كسرى أنو شروان وفتح تابوته وفتشه وجد صورته وهي بمائها ما بليت ، والثياب بجدتها ما تغيرت ولا خلقت ، والخاتم في يده ياقوت أحمر كثير الثمن ما رأى المأمون قبله فصّاً مثله ، وكان على فصه مكتوب « به مه نه مه به » ، ومعنى ذلك « الأجود أكبر وليس الأجود أكبر » فأمر المأمون أن يغطى بثوب نسج من الذهب ؛ وكان مع المأمون خادم فأخذ الخاتم من أصبع كسرى ولم يشعر المأمون ، فلما علم به أعاده وأمر بإهلاك الخادم وقال : كاد يفضحني بحيث يقال عني إلى يوم القيامة أن المأمون كان نباشاً وأنه فتح تربة كسرى وأخذ خاتمه من أصبعه .

---

(١) لفظ فارسي بمعنى رئيس القرية أو رئيس الفلاحين ، وكان يطلق على خانات تركستان في العصر الإسلامي . (الألقاب الإسلامية ص ٢٩٠ ، د . حسن الباشا) .

حكاية : سأل الاسكندر يوماً حليماً من حكمائه ، وكان قد عزم على سفر ، فقال : أوضحوا لي من الحكمة سبيلاً أحكم فيه أشغالي ، وأتقن فيه أعمالي ! فقال كبير الحكماء : أيها الملك لا تدخل قلبك حب شيء ولا بغضه ؛ لأن القلب خاصته كاسمه ، وإنما سُميَ قلباً لتقلبه ؛ وأعمل الفكر واتخذه وزيراً ، واجعل العقل صاحباً ومشيراً ، واجهد أن تكون متيقظاً ، ولا تشرع في عمل أمر بغير مشورة ، وتجنب الميل والمحاباة في وقت العدل والإنصاف ، فإذا فعلت ذلك جرت الأشياء على آثارك ، وتصرفت فيها باختيارك .

وينبغي أن يكون الملك وقوراً حليماً ، وأن لا يكون طائشاً عجولاً ؛ قالت الحكماء : ثلاثة أشياء قبيحة وهي في ثلاثة أقبح : الحدة في الملوك ، والحرص في العلماء ، والبخل في الأغنياء .

حكاية : كتب الوزير يونان إلى الملك العادل أنو شروان وصايا ومواعظ فقال : ينبغي يا ملك العالم أن يكون معك أربعة أشياء دائمة : العقل ، والعدل ، والصبر ، والحياء ، وينبغي يا ملك الزمان أن تنفي عنك الحسد والكبر وضيق الصدر ـ ويريد به البخل والعداوة ـ واعلم يا ملك الزمان أن الذين كانوا قبلك من الملوك مضوا ، والذين يأتون من بعدك لم يصلوا، فاجتهد أن يكون جميع ملوك الزمان محبيك ومشتاقيك .

حكاية : يقال إن أنو شروان ركب يوماً من أيام الربيع على سبيل الفرجة ، فجعل يسير في الرياض المخضرة ، ويشاهد الأشجار المثمرة ، وينظر إلى الكروم العامرة ، فنزل عن فرسه ، وسجد شكراً لربه وخر ساجداً ووضع خده على التراب زماناً طويلاً ، فلما رفع رأسه قال لأصحابه : إن خصب السنين من عدل السلاطين ، وحسن نيتهم إلى رعيتهم ؛ فالمنة لله تعالى الذي أظهر حسن نيتنا في سائرالأشياء .وإنما قال ذلك لأنه جربه في الأوقات .

حكاية : يقال إن أنو شروان الملك العادل خرج يوماً إلى الصيد ، فانفرد من عسكره خلف الصيد ، فرأى ضيعة بالقرب منه وكان قد عطش فقصد الضيعة

وأتى باب دار قوم وطلب ماء ليشرب ، فخرجت صبية فأبصرته ثم عادت إلى البيت فدقت قصبة واحدة من قصب السكر ومزجت ما عصرته منها بالماء ووضعته في القدح ، فرأى فيه تراباً وقذى فشرب منه قليلاً قليلاً حتى انتهى لآخره وقال للصبية « سادناس » أي نعم الماء لولا قذى كدره ؛ فقالت « يا شرهيك » أنا عمداً ألقيت فيه القذى ؛ فقال : ولم فعلت ذاك ؟ فقالت رأيتك شديد العطش ، ولو لم يكن فيه القذى لشربته نوبة واحدة وقد يضرك شربه . فتعجب أنو شروان من كلامها وعلم أنها قالته عن ذكاء وفطنة . ثم قال لها : من كم عصرت ذلك الماء ؟ فقالت : من قصبة واحدة . فتعجب أنو شروان وأضمر في نفسه أنه إذا عاد يأمر بزيادة الخراج على تلك الناحية . ثم عاد إلى تلك الناحية بعد وقت آخر ، واجتاز على ذلك الباب منفرداً وطلب ماء ، فخرجت إليه تلك الصبية بعينها فعرفته ، ثم عادت لتخرج الماء فأبطأت عليه ، فاستعجلها أنو شروان وقال : لأي شيء أبطأت ؟ قالت : لأنه لم يخرج من قصبة واحدة قدر حاجتك ، وقد دققت ثلاث قصبات ولم يخرج منها قدر ما كان يخرج من قصبة واحدة . فقال أنو شروان : وما سبب ذلك العجز ؟ فقالت : سببه تغير نية السلطان ، فقد قيل إنه إذا تغيرت نية السلطان على قوم طارت بركاتهم وقلت خيراتهم ، فضحك أنو شروان وعجب من قول الصبية وأزال من نفسه ما كان أضمره لهم وتزوج الصبية لحسن ذكائها وفصاحة كلامها .

حكمة : يقال إن الصادقين من الناس ثلاثة : الأنبياء ، والملوك ، والمجانين . وقيل السكر جنون ، وإن المجنون يخاف من السكران لأن المجنون سكره باطن والسكران جنونه ظاهر . والويل لمن يبقى في سكر الغفلة دائماً كما قال الشاعر :

من أسكرته الخمر في عقله ... ليس عليه إن صحا من خجل
ومن يكن بالملك ذا سكرة ... يصح إذا ما الملك عنه انتقل

والقليل جدّاً من كان من سكر سلطنته صاحياً ، وكان المقدم على أعماله ثقة نصوحاً معيناً . وعلامة سكر السلطان أن يسلم وزارته إلى محتاج معوز ثم

يستديمه ويتمسك به إلى أن تزول حاجته ، وتنقضي فاقته ، ثم يعزله وينصب غيره ؛ فيكون مثله مثل من يربي طفلاً صغيراً إلى أن يصير بالغاً كبيراً يصلح للأشغال ، وإمضاء الأعمال ، ثم يقتله ويستأصله .

قيل : أربعة أشياء على الملوك من جملة الفرائض وهي إبعاد الأدنياء عن مملكتهم ، وعمارة المملكة بتقريب العقلاء ، وحفظ المشايخ وأُولي الحكمة والتجربة ،والزيادة في أمر الملك بالإقلال من الأعمال المذمومة .

إشارة لطيفة : لما تولى الأمر عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري أن أَعِنِّي بأصحابك ؛ فكتب إليه الحسن البصري : أما طالب الدنيا فلا ينصح لك ، وأما طالب الآخرة فلا يرغب فيك ، ولا يجوز للسلطان أن يسلم وزارته ولا عملاً من أعماله إلى من ليس بأهل ، فإن سلم الأعمال إلى ذلك الرجل فقد أفسد ملكه وظهر له الخلل الوافر من كل وجه ومن كل جانب كما قال الشاعر :

البيت إذا ما حان منه خرابه ظهر التخلخل من أساس الحائط
وإذا تولى الملك غير رجاله ولوا الأمور لكل فَدْم[1] ساقط

وينبغي لمن خدم الملوك أن يكون كما قال الشاعر :

إذا خدمت الملوك فالبس من التوقي أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس

وأما من تبسط مع السلطان فقد ظلم نفسه ولو كان ولد السلطان ، فليس للانبساط معهم في خدمتهم وجه كقول الشاعر :

إذا كنت للسلطان نجلاً فَدَارِهِ وخف منه إن أحببت رأسك تسلم

ومثل من تبسط مع السلطان كمثل الحوّاء[2] الذي يكون دهره مع الحيات

---

(١) الفدم (بفتح الفاء وسكون الدال) : العييّ الثقيل الفهم .
(٢) الحواء : الذي يرقي الحيات ويجمعها . ويقال أيضاً : الحاوي .

يأكل معها وينام معها ، أو كرجل في البحر بين التماسيح التي تبلع الناس فلا يزال مخاطراً .

حكمة : قيل : ويل لمن ابتلي بصحبة السلاطين ! فإنهم ليس لهم صديق ولا قرابة ولا خادم ولا ولد ولا احترام لأحد ، إلا من كانوا محتاجين إليه لعلمه أو لشجاعته ، فإذا أخذوا حاجتهم منه لم يبق لهم عنده مودة ، ولم يبق له عندهم وفاء ولا حياء . وأكثر أشغالهم رياء ، يستصغرون كبار ذنوبهم ويستعظمون صغار ذنوب غيرهم . قال سفيان : لا تصحب السلطان ، وإياك وخدمته ؛ لأنك إن كنت له مطيعاً أتعبك ، وإن خالفته قتلك وأعطبك .

حكاية : يقال إن يزدجرد بن شهريار دخل على والده في وقت لم يكن لأحد إذن في الدخول ، فقال شهريار لبهرام : امض واضرب الحاجب الفلاني ثلاثين خشبة واطرده عن الدركاه وأقم عوضه فلاناً الحر . وكان عمر يزدجرد يومئذ ثلاث عشرة سنة ، فعزل ذلك الحاجب الأول عن الباب . فعاد يزدجرد في بعض الأيام وأراد أن يدخل على والده شهريار فجعل الحاجب يده في صدره ورده على عقبه وقال : إن عدت ورأيتك ههنا ضربتك ستين خشبة ، ثلاثين لأجل الحاجب المعزول وثلاثين لئلا تعود تدخل على الملك في غير وقت الإذن وإن كنت ولده ؛ لئلا تجلب إلي الضرب والهوان والطرد .

وأصلح الأشياء للملك أن لا يباشر الأسباب بنفسه ، ويحفظ ناموسه ؛ لأن كثيراً من الأرواح يتعلق بروحه وصلاح الرعية في حياته . وكذا ينبغي أن لا يجور على نفسه ولا يجور على الناس . ولا ينبغي للملك أن يجازف في الأشغال ولا يتساهل فيها . ويجب عليه أن ينيم على فراشه كل ليلة غيره ، ويتحول بنفسه عن ذلك الموضع ، حتى إذا قصده عدو لإتلاف نفسه وجد في مكانه غيره فلا تصل يد عدوه إليه كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إنه انهْزم خسرو بن أبرويز من بهرام جور ، وقال : هربت ، وإن كان هربي عيباً لأخلص بهربي أرواح جماعة من أصحابي ، لأني

إن هلكت هلك بسببي ألوف من الخلائق . والمقصود من المقال أن زماننا هذا غير موافق ، والناس فيه بين قبيح الفعل وعاقل ، والملوك مشغولون بالدنيا وحب المال، ولا يجوز الإهمال والتغافل بين أناس السوء . وفي أمثال العرب « العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة » وهذا المثل يضرب في من له أصل ومن لا أصل له . وقد كان للناس وقت وزمان يؤمن فيه رجل واحد جميع أهل الدنيا ، ويسخرهم بدرة كان يحملها على عاتقه ، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه . والفضل في ذلك الزمان للوقت والرعية مشغولون ، ولو عوملوا بتلك المعاملة لم يحتملوا ولبدا فيهم الفساد . لكن ينبغي للسلطان في هذا الوقت أن يكون له أتم سياسة وهيبة ليشتغل كل إنسان بشغله ويأمن الناس بعضهم من بعض .

ونحن الآن نورد خبراً يستفيد به القارىء والسامع : سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لأي شيء لا تنفع الموعظة هؤلاء الخلق ؟ فقال : الخبر المعروف أن رسول الله ﷺ لما أوصى عند وفاته أشار بأصابعه الثلاث وقال : « **لا تسألوني عن حال أولئك** » فقال قوم من الصحابة : أشار إلى ثلاثة أشهر ، وقال قوم : إلى ثلاث سنين ، وقال قوم : إلى ثلاثين سنة ، وقال قوم : ثلاثمائة سنة ؛ يعني إذا مضت ثلاثمائة سنة فلا تسألوني عن حال أولئك الرجال . فإذا قال النبي ﷺ لا تسألوني عن حال أولئك فكيف ينفع الوعظ فيهم ؟ وسئل عن هذا السؤال فقال : كان الناس في ذلك الوقت نياماً ، وكان العلماء أيقاظاً ؛ واليوم العلماء نيام ، والخلق موتى ، فأي نفع لكلام النائم مع الميت ؟

أما زماننا هذا فهو الزمان الذي هلك فيه الخلائق جميعهم ، وقد خبثت أعمال الناس ونياتهم ؛ وإذا لم يكن فيه للسلطان سياسة على الخلائق ولا هيبة لم يثبتوا على الطاعة والصلاح . وقد قال النبي ﷺ : العدل من الدين وفيه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وفيه يكون خير الرعية وأمنهم وعافيتهم وكل الأعمال توزن بميزان العدل . قال الله تعالى : ﴿ **والسماء رفعها ووضع**

الميزان ﴾ [الرحمن : ٧] يعني به العدل . وقال عز وجل في موضع آخر : ﴿ الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : ١٧] وأحق الناس بالجاه والمملكة من كان في قلبه مكان للعدل ، وبيته مقر ذوي الدين والفضل ، ورأيه من أرباب الدين والعقل ، وصحبته مع العقلاء ، ومشورته مع ذوي الآراء ؛ كما قال الشاعر :

يده خزانة جوده والقلب خازن قصده
قد رتبت أبوابه أبداً لطالب عدله

قال الحسن البصري : كل ملك عظَّم أمر الدين كان عند رعيته مهيباً عظيم القدر والأمر ، ومن عرف الله تعالى تعرف الخلق به واختاروا أن يكونوا معارفه كما قال الشاعر :

من عرف الله تعالى اسمه آثر كل الخلق عرفانه
طوبى لمن أول ما حازه معرفة الخالق سبحانه

قال بزرجمهر : ينبغي للملك أن لا يكون في مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه ، إذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قلع الحشيش كيلا يضبط أماكن الريحان .

قال أفلاطون : علامة السلطان المظفر على العدو أن يكون قويّاً في نفسه ، لازماً لصمته ، مفكراً في رأيه وتدبيره بقلبه ، وأن يكون عاقلاً في ملكه ، شريفاً في نفسه ، حلواً في قلوب الرعية ، رفيقاً في سائر أعماله ، مجرباً لعهد من تقدمه ، خبيراً بأعمال من هو أقدم منه صلباً في دينه وعزمه . وكل ملك تجمعت فيه هذه الخلال ، وحصلت له هذه الخصال ، كان في عين عدوه مهيباً ، ولا يجد العائب له معيباً ، إذا كان الملك يرى أن حوله وقوته بالله جلت قدرته وإن كان عدوه قوياً فإنه يظفر به وينتصر عليه ؛ مثاله قول الله عز وجل ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

نكتة : قال سقراط الحكيم : علامة السلطان الذي يدوم ملكه أن يكون

الدين والعقل منه حيين في قلبه ليكون في قلوب الرعية محبوباً ، وأن يكون العقل قريباً ، وأن يكون طالباً للعلم ليعلم من العلماء ، وأن يكون فضله غزيراً وبيته كبيراً ليعظم عند الفضلاء ، ويربي الأدباء ليتفرع عنه الأدباء ، وأن يبعد عن مملكته متطلبي العيوب لتبعد عنه العيوب . وكل ملك لم يكن له مثل هذه الخصال لا يفرح بمملكته ، وتسرع إليه دواعي هلكته ، ويتلف أقرباؤه على يده وجلساؤه ؛ لأن القيل يظهر من عدم العقل كما قال الشاعر :

يقول الحكيم المقال الأَسَدّ	دَعِ المزح إذ لست فيه أَسَدْ
تحفظ بنفسك مع مفلتيـ	ـك فعينك للملك تجني الحردْ
وخف أن تنازعه ملكه	وفي حالة السخط عنه ابتعدْ
فتقتل عن سخطه لا لجرم	ضياعاً وليس عليه قَوَدْ
سمعت عن الخمر أن المليك	يسكر منها قبيل الأمدْ

إشارة وحكمة : سأل معاوية الأحنف بن قيس فقال : يا أبا يحيى كيف الزمان ؟ فقال : الزمان أنت ، إن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان . وقال الأحنف بن قيس : إن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور ؛ لأن العدل يصفو نوره وتلوح تباشيره من مسيرة ألف فرسخ ، والجور يتراكم ظلامه ويسود قتامه من مسيرة ألف فرسخ . وقال الفضيل بن عياض : لو كان دعائي مستجاباً لم أدع به لغير السلطان العادل ؛ لأن السلطان العادل صلاح العباد ، وزينة البلاد ، وقد جاء في الخبر ، عن سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه : « **المقسطون على منابر اللؤلؤ يوم القيامة** » .

حكاية : كان الإسكندر يوماً على تخت مملكته وقد رفع الحجاب ، فقدم بين يديه لص ، فأمر فقال : أيها الملك سرقت ولم يكن لي شهوة السرقة ولم يطلبها قلبي ؛ فقال له الإسكندر : لا جرم تصلب ولا يطلب قلبك الصلب ولا يريده . فواجب على السلطان أن يعدل وينظر غاية النظر فيما يأمر به من السياسة ، لينفذ ذلك في أصحابه مثل وزيره وحاجبه ونائبه وعامله ؛ لأن كثيراً

من سياسة السلطان وعدله ونظره وحسن تأمله يغطى عليه بالبراطيل[1] ويغرب وقته ، وذلك من تغافل الملك وتهاونه ، فينبغي أن يجتهد غاية الاجتهاد في تدارك ذلك كما جاء في الحكاية :

حكاية : كان للملك كستاشب وزير اسمه راشت روش ، وبهذا الاسم كان يظن كستاشب أنه تقي صالح ، وما كان يسمع فيه كلام أحد يقدح فيه ، ولم يكن يخبر حاله ، فقال راشت روش لخليفة الملك : إن الرعية قد بطرت الآن من كثرة عدلنا فيهم وقلة تأديبنا لهم ، وقد قيل إذا عدل السلطان جارت الرعية ، والآن قد قامت منهم رائحة الفساد ويجب علينا أن نؤدبهم ونزجرهم ونبعد المعتدين ونقرب الصالحين . ثم إنه كان كل من ألزمه الخليفة أن يؤدبه ارتشى منه راشت روش وأطلقه ، إلى أن ضعفت الرعية وضاقت بها الأحوال ، وخلت الخزائن من الأموال ، فظهر لكستاشب عدو فاعتبر خزائنه فلم يجد فيها شيئاً يصلح به أمور عسكره ، فركب يوماً في شغل عليه وسار في البرية ، فرأى من بعد قطيع غنم فقصده ، فرأى خيمة مضروبة والأغنام نيام ، ورأى كلباً مصلوباً ، فلما قرب من الخيمة خرج إليه شاب فسلم عليه وسأله النزول ، فأكرمه وقدم بين يديه ما حضر كما وجب ، فقال كستاشب : أخبرنا عن حال هذا الكلب وصلبه ! قال : يا مولانا كان هذا الكلب أميناً لي على أغنامي ، فصادف ذئبة فكان ينام معها ويقوم معها والذئبة كل يوم تأتي وتأخذ من الغنم رأساً بعد رأس ، فجاء في بعض الأيام صاحب الموضع وطلب مني حق المرعى ، فقعدت افتكر وأحسب حساب الغنم وهي تنقص في الحساب ، ورأيت ذئباً أخذ شاة والكلب ساكت مكانه ، فعلمت أنه كان سبب تلف الغنم ، وأنه كان يخون أمانته ، فلزمته وصلبته . فاعتبر كستاشب وجعل يتفكر في نفسه ، وقال : رعيتنا أغنامنا فيجب أن نسأل نحن أيضاً عنها لنصل إلى حقيقة أمرها . فرجع إلى داره فجعل ينظر في الروزنامجات[2] فإذا هي جميعها شفاعات راشت روش، فضرب

---

(١) جمع برطيل ، وهي الرشوة .

(٢) الروزنامجات : فارسية معربة ومعناها السجلات . جمع روزنامج .

مثلاً وقال : من اغتر بالاسم من ذوي الفساد ، بقي بغير زاد ، ومن خان في الزاد بقي بلا روح . ثم أمر بصلب الوزير . وهذه الحكاية مكتوبة في كتاب بادركارنامه وفيها يقول الشاعر :

وما أنا بالمغتر باسمك إنما ... تسميت كي تحتال في طلب الرزق
ومن يجعل الأسماء فخّاً لرزقه ... يعد غير ذي روح على الجذع مستلقي

حكاية : يقال إنه كان لعمرو بن ليث نسيب يعرف بأبي جعفر بن زيدويه ، وكان عمرو به حفياً ، ومن جملة محبته له أنه كان يصله من هراة في كل سنة مائة جمل حمر الوبر على كل جمل حمل من الحوائج ، فأنفذ عمرو من كل حاجة حملاً إلى دار أبي جعفر بن زيدويه وقال : ليوسع عليه في مطبخه ، فقيل لعمرو بن ليث إن أبا جعفر قد بطح غلاماً له ، وقد ضربه عشرين خشبة ؛ فأمرَ أن يحضر ثم أمر بكل سيف في خزائنه فقال : يا أبا جعفر اختر من هذه السيوف أجودها واعزله ناحية ! فجعل أبو جعفر يتخير وينتقي إلى أن أفرد منها مائة سيف ؛ فقال : اختر الآن منها سيفين ! فاختار أبو جعفر منها سيفين أجودها ؛ فقال عمرو : ارسم الآن أن يجعلا في قراب واحد ! فقال أبو جعفر : أيها الأمير كيف يمكن أن يكون سيفان في قراب واحد ؟ فقال عمرو بن ليث : فكيف يمكن أن يكون أميران في بلد واحد !؟ فعلْم أبو جعفر أنه اخطأ ، فقبل الأرض والتمس العفو والإقالة ؛ فقال عمرو بن ليث : لولا حق القرابة ما جئت بيتك فخل عن هذا الأمر لنا فقد عفونا هذه النوبة عنك .

حكمة : قال أزدشير : إذا كان الملك عاجزاً عن إصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على رد العوام إلى الصلاح ؟ قال الله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . فالعرب تقول إنه ليس شيء أضيع للملك وأفسد للرعية من تعذر الإذن في الدخول وتكاثر الحجاب ، وصعوبة الحجاب . وإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن للعمال أن يجوروا على الرعايا وخافت الرعية من جور بعضهم على بعض ، ومن سهولة الحجاب يكون

للملك على سائر العمال اطلاع . ولا يجوز للسلطان أن يكون غافلاً لتكون الهيبة من ناموس المملكة باقية ، ويستريح من الهموم الحادثة عن الغفلة .

حكاية : يقال إن أزدشير كان متيقظاً ذا فطنة بالأمور ، بحيث إذا جاءه ندماؤه من الغد حدث كل واحد منهم بما صنعه ، وكان يقول لأحدهم : إنك البارحة فعلت الشيء الفلاني ونمت مع زوجتك ومع جاريتك الفلانية . ومهما كان يجري لندمائه يحدثهم به من الغد ، بحيث إنهم كانوا يقولون ويظنون أن ملكاً من السماء يأتي ويعرفه بأفعالهم . وكذلك كان السلطان محمود بن سبكتكين رحمه الله .

حكمة : قال أرسطاطاليس : خير الملوك من كان في حدة نظرة على مثال العقاب ، وكان الذين حوله كعقبان لا كالجيف . يعني إذا كان السلطان جيد النظر ذا يقظة بالأمور ، ذا فكرة في العاقبة ، وكان المقربون منه وخواص دولته بهذه الصفة ، انتظمت أحوال مملكته واستقامت أمور أهل ولايته .

حكمة : قال الإسكندر : خير الملوك من بدل السنة السيئة بالسنة الحسنة ، وشر الملوك من بدل السنة الحسنة بالسنة السيئة .

حكمة : قال أبرويز : ثلاثة لا يجوز للملك التجاوز عنهم ولا يصفح عن ذنوبهم : من قدح في ملكه ، أو أفسد حرمه ، أو أفشى سره .

قال سفيان الثوري : خير الملوك من جالس أهل العلم . ويقال إن جميع الأشياء تتجمل بالناس ، والناس يتجملون بالعلم وتعلو أقدارهم بالعقل ، وليس شيء خيراً من العقل والعلم ، فإن العلم بقاء العز ودوامه ، والعقل بقاء السرور ونظامه . ومن اجتمع العلم والعقل فيه فقد اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة : العفة ، والأدب ، والتقى ، والأمانة ، والصحة ، والحياء ، والرحمة ، وحسن الخلق ، والوفاء ، والصبر ، والحلم ، والمداراة في مكانها ؛ وهذه من خواص آداب الملك . وينبغي أن يكون مع العقل العلم كما أن مع النعمة الشكر ، ومع

الصباحة الحلاوة ، ومع الاجتهاد الدولة ، فإذا جاءت الدولة حصل المراد جميعه .

حكاية : قال عبد الله بن طاهر : إن يعقوب بن ليث علا أمره وارتفع قدره ، وظهر اسمه وذكره ، وملك كرمان وفارس وخوزستان وقصر الواق ؛ وكان الخليفة في ذلك الزمان المعتمد فكتب إليه المعتمد : إنك كنت رجلاً صفاراً[١] فمن أين تعلمت تدبير الملك ؟ فكتب إليه يعقوب جواباً وقال : إن المولى الذي آتاني الدولة آتاني التدبير . وفي عهد أزدشير مكتوب : « كل عزيز لا يضع قدمه على بساط العلم كانت عاقبته ذلاً ، وكل عبد ليس معه خوف من الله تعالى وإن كان تامّاً فإن مصيره إلى الندم » .

حكمة : قال عبد الله بن طاهر يوماً لأبيه : كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا ؟ قال : ما دام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً في هذا الإيوان .

حكمة : كان المأمون قد جلس في بعض الأيام لفصل الدعاوى والأحكام ، فرفعت إليه قصة ، فسلم القصة إلى وزيره الفضل بن سهل وقال : اقض قصته وارفع هذه القصة في هذه الساعة ، فإن إلفك في سرعة دورانه قلّ أن يثبت على حاله .

قال مؤلف الكتاب : يجب على الملوك العقلاء ، والأفاضل الألباء أن ينظروا في هذه الأخبار ليأخذوا نصيباً من أيام دولتهم ، وينصفوا المظلومين ويقضوا حوائج السائلين ، ويتيقنوا أن هذا الفك لا يثبت على دور واحد ؛ لأنه لا اعتماد على الدولة ، وأن القضاء سماوي لا يرد بالعساكر وكثرة الأموال والذخائر ؛ وإذا انحلت الدولة وتلاشت الأموال ، وتفانت الرجال ، فلا ينفع الندم إذا زلت القدم كما جاء في الحكاية :

حكاية : أن مروان[٢] آخر خلفاء بني أمية عرض العسكر ، فكان ثلاثمائة

---

(١) الصفار : صانع النحاس الأصفر .

(٢) مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في المشرق .

ألف رجل بالعدد الكاملة ، فقال وزيره : إن هذا لمن أعظم الجيوش . فقال له مروان : اسكت ! فإنه إذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، وإذا نزل القضاء السماوي وإن كان العسكر عظيماً كثيراً بان قليلاً حقيراً ، ولو ملكنا الدنيا بأسرها فلا بد أن تنزع منا ؛ ولمن وفت الدنيا حتى تفي لنا ! .

حكمة : قال أبو الحسين الأهوازي في كتاب « الفرائد والقلائد » : الدنيا لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب، فخذ زاداً من يومك لغدك ، فلا يبقى يوم عليك ولا غد . ويقال إنه كان على قبر يعقوب بن ليث مكتوباً هذه الأبيات ، عملها قبل موته وأمر أن تكتب على قبره ، وهي هذه :

سلام على أهل القبور الدوارس ... كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ... ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس
فقد جاءني الموت المهول بسكرة ... فلم تغن عني ألف آلاف فارس
فيا زائر القبر اتعظ واعتبر بنا ... ولا تك في الدنيا هديت بآنس
خراسان نحويها وأطراف فارس ... وما كنت عن ملك العراق بآيس
سلام على الدنيا وطيب نعيمها ... كأن لم يكن يعقوب فيها بجالس

سؤال وجواب : سئل ملك كان قد زال عنه الملك فقيل : لأي سبب انتقلت الدولة عنك وسلمت إلى غيرك وسلبت منك ؟ فقال : لاغتراري بالدولة والقوة ، ورضاي برأيي وعلمي ، وغفلتي عن المشورة ، وتوليتي لأصاغر العمال على أكابر الأعمال ، وتضييعي الحيلة في وقتها ، وقلة تفكري في الحيلة وإعمالها وقت الحاجة إليها ، والتباطؤ والوقفة في مكان العجلة ، والفرصة والاشتغال عن قضاء الحوائج . وقيل : أي الاشرار أكثر شرّاً ؟ فقال : الرسل الخونة الذين يخونون في الرسالة لأجل أطماعهم ، فكل خراب المملكة منهم ، كما قال أزدشير في حقهم : كم سفكوا من الدماء وكم هزموا من الجيوش ، وكم هتكوا من أستار ذوي الحرمات الأحرار ، وكم من يمين كذبوها بخيانتهم ، وكم من عهود نقضوها بقلة أمانهم ، وكم اجتاحوا من الأموال . وكان ملوك

العجم يتحرزون ويتحفظون وما كانوا ينفذون رسولاً إلا بعد أن يجربوه ويمتحنوه .

حكمة : يقال إن ملوك العجم كانوا إذا أرسلوا رسولاً إلى الملوك أرسلوا معه جاسوساً ليكتب جميع ما قاله وما سمعه ، فإذا عاد الرسول قابلوا كلامه بالنسخة التي كتبها الجاسوس فإن صح مقاله علموا أنه صادق ، فكانوا يرسلونه بعد ذلك إلى الأعداء .

حكاية : أرسل الإسكندر رسولاً إلى الملك دارا بن دارا ، فلما عاد الرسول وأعاد الجواب شك الإسكندر في كلمة من كلامه ، فلزمها عليه ، فقال الرسول : يا مولاي أنا سمعت هذه الكلمة منه بأذني هاتين . فأمر الإسكندر أن يكتب ذلك اللفظ بعينه ، وأنفذه على يد رسول آخر إلى دارا بن دارا ، فلما وصل وعرض المكتوب عليه قرأه وطلب سكيناً وقطع تلك الكلمة من الكتاب وأعاده إلى الاسكندر ، وكتب إليه : إن أسّ الملك على حسن نية الملك وصحة طبعه ، وأساس صحة السلطان على صحة لفظ السفراء وصدق مقالة الرسل الأمناء ؛ لأن الرسول يقول ما قاله عن لسان الملك ، ويسمع ما يسمعه من الجواب بسمع الملك ، والآن فقد قلعت تلك الكلمة من الكتاب لأنها لم تكن من كلامي ولم أجد سبيلاً إلى قطع لسان رسولك . فلما عاد الرسول وأعاد الجواب إلى الإسكندر استدعى الرسول وصاح عليه وقال له : ويلك ! من وضعك على إتلاف ملك من الملوك بتلك الكلمة التي تكلمت بها ؟ فأقر الرسول وقال : إنه قصر في حقي وأسخطني ، فقال إسكندر : سبحان الله أظننت أنا أرسلناك لتصلح أمورك أو تسعى في حقوق الناس إلينا !؟ ثم أمر به فسل لسانه من قفاه .

* * *

فصل

يجب على السلطان أنه متى وقعت رعيته في ضائقة أو حصلوا في شدة وفاقة أن يعينهم ، لا سيما في أوقات القحط وغلاء الأسعار حيث يعجزون عن التعيش ولا يقدرون على الاكتساب ، فينبغي حينئذ للسلطان أن يعينهم بالطعام ، ويساعدهم من خزائنه بالمال ، ولا يمكن أحداً من حشمه وخدمه وأتباعه أن يجور على رعيته ، لئلا يضعف الناس وينتقلوا إلى غير ولايته ، ويتحولوا إلى سوى مملكته ، فينكسر ارتفاع السلطان ، ويقل حاصل الديوان ، وتعود المنفعة على ذوي الاحتكار ، الذين يسرون بغلاء الأسعار ، ويقبح ذكر الملك ويدعى عليه ؛ ولأجل هذا كان الملوك المتقدمون يحذرون من هذا غاية الحذر ، ويراعون الرعايا من خزائنهم ، ويساعدونهم من ذخائرهم ودفائنهم .

حكاية : يقال إنه كان رسم ملوك العجم أن يأذنوا لرعاياهم في الدخول إليهم في أيام النوروز والمهرجان، وكان المنادي ينادي قبل ذلك بثلاثة أيام أن استعدوا لليوم الفلاني ليأخذ كل من الناس أهبته ، ويصلح أمره ويكشف قصته ، ويتيقن حجته ، ومن كان له خصم يعلم أنه يتألم منه عند الملك طلب رضاه . فإذا كان ذلك اليوم وقف المنادي على باب الملك ونادى : إن منع انسان إنساناً من الدخول على الملك كان الملك بريئاً من دمه . ثم كانت تؤخذ القصص من الناس وتوضع بين يدي الملك ، وكان ينظر في كل واحدة منها على الانفراد ، وموبذان قاعد عن يمينه (وموبذان بلسانهم قاضي القضاة) وإن كان في القصص قصة يتألم فيها من الملك قام الملك من مقامه وبرك بين يدي موبذ موبذان مقابل خصمه وقال : أنصف أولاً هذا الرجل مني ، ولا تخلد إلى الميل والمحاباة ، ولا تخترني عن نفسك ، لأن الله تعالى إذا أهدى الحظوظ إلى عباده

اختار لهم وولى عليهم خير خلقه ، وإذا أراد أن يرى عباده أي قدر لذلك الخليفة عنده أطلق على لسانه ما لم يطلق على لسانك . ثم كان ينظر الموبذان فإن كان بين الملك وخصمه دعوى صحيحة وقامت البينة على الملك أخذ الحق منه بتمامه وكماله ، وإن لم يكن بين الملك وخصمه دعوى صحيحة وكانت دعواه باطلة لا يثبت على صحتها حجة أمر بعقوبته ونادى عليه هذا جزاء من يريد عيب الملك والمملكة . وكان الملك إذا فرغ من الدعاوى واستوى على سرير ملكه ، وضع التاج على مفرقه وأقبل على جماعته وخاصته وقال : إنما أنصفت من نفسي لئلا يطمع أحد منكم في الظلم والجور على أحد ، فكل من كان له منكم خصم فليرضه . وكان يبعد في ذلك اليوم كل من كان قريباً منه ، ومن كان قويّاً ضعف عنده . وكانت الملوك على هذا السبيل وعلى هذا المذهب إلى أيام يزدجرد الأثيم ، فإنه غيّر قواعد بني ساسان ، وظلم الخلق وأفسد ، حتى جاء في بعض الأيام فرس في غاية الجودة والكمال ، بحيث أنه لم ير أحد في ذلك الزمان مثله في حسن خلقته ، وجمال هيئته ، فدخل من باب الدار واجتهد جميع من في عسكره أن يلزموه ، فامتنع منهم ولم يقدروا على إمساكه حتى وصل قريباً من يزدجرد ، فوقف إلى جانب الإيوان ساكناً ، فقال يزدجرد : تنحوا عن هذا الفرس فلا يقربه أحد منكم ، فإنه هدية من الله تعالى خاصة لي . فنهض من مكانه وجعل يمسح وجهه قليلاً ، ثم أمر يده على ظهر الفرس والفرس ساكن لا يتحرك ، فاستدعى يزدجرد السرج فأسرجه بيده ، وجذب حزامه ، وأوثقه ، وانحرف نحو كفله ليضع الثَّفَر[1] فيه ، فرفسه الفرس على فؤاده رفسة محكمة فخر ميتاً في الحال . وخرج الفرس ، ولم يعلم أحد من أين جاء ولا إلى أين ذهب ؛ فقال الناس : كان هذا الفرس ملكاً أرسله الله تعالى ليهلكه ويخلصنا من جوره وظلمه .

حكاية : قال القاضي أبو يوسف : حضر عندي في مجلس حكمي يحيى ابن خالد البرمكي مع خصم له مجوسي ، فادعى المجوسي عليه ، فطلب منه

---

(١) الثفر (بفتح الثاء المثلثة والفاء) : سيرٌ في مؤخر السرج ونحوه يشد على عجز الدابة تحت ذنبها .

الشاهد ، فقال : ما لي شاهد، فحلفه ! فحلفت يحيى بن خالد ، وأرضيت خصمه بإحلافه ، وساويت في الحكم بين يحيى وبين المجوسي لعزة الاسلام ؛ وما ملت قط مع أحد ، ولا حابيت أحداً ، خوفاً أن يسألني الله تعالى عن ذلك ؛ بل يجب أن يعرف قدر الزعماء والأكابر ، وينبغي للأكابر أن لا يظلموا أصاغرهم ، وأن يعظموا أمر الحق ، ويطيعوا أمر السلطان ولا يعصوه في حال ، ليكونوا قد عملوا بقول الله تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [النساء : ٥٩] ومن يجعل الله له هذه المرتبة الشريفة ، والدرجة المنيفة ، ويقرن طاعته بطاعته جل اسمه وطاعة رسوله ﷺ ، فالواجب على الخلق أن يطيعوه ويخافوه ، ويجب على السلطان شكر هذه النعمة والطاعة لربه تعالى ، وامتثال ما أمره به من العدل والإحسان والرأفة بالمظلومين ؛ فقد قيل : احذروا من دعاء المظلومين ، وخافوا من ظلم من لا ينتصر من ظلمه إلا بدمع عينيه ؛ فما دون دعاء المظلوم حجاب ، ودعاؤه مستجاب ، لا سيما الدعاء في الأسحار ، والتضرع في هدوء الليالي إلى الجبار ، كما قال الشاعر :

فلا تعجلن بالجور ما دمت قادراً فآخره إثم وخوف عذاب
تنام وما المظلوم عنك بنائم ودعوته لا تنثني بحجاب

وقال رسول الله ﷺ : « **تأسفت على موت أربعة من الكفار : على أنو شروان لعدله ، وحاتم الطائي لسخائه ، وأمرىء القيس لشعره ، وأبي طالب لبره** » .

الباب الثاني

في سياسة الوزارة وسيرة الوزراء

اعلم أن السلطان يرتفع ذكره ويعلو قدره بالوزير إذا كان صالحاً كافياً عادلاً ؛ لأنه لا يمكن لأحد من الملوك أن يصرف زمانه ويدبر سلطانه بغير وزير . ومن انفرد برأيه زل من غير شك ؛ ألا ترى أن النبي ﷺ مع جلالة قدره وعظم درجته وفصاحته أمره الله تعالى بالمشاورة لأصحابه العقلاء العلماء فقال عز من قائل : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وأخبر في موضع آخر عن موسى عليه السلام : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٢] . وإذا لم يستغن الأنبياء عليهم السلام عن الوزراء واحتاجوا إليهم كان غيرهم من الناس أحوج .

سئل أزدشير بن بابك : أي الأصحاب أصلح للملك ؟ فقال : الوزير العاقل المتقن الأمين الصالح التدبير ، ليدبر معه أمره ويشير إليه بما في نفسه .

وعلى السلطان أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

أحدها : إذا ظهرت منه زلة أو وجدت منه هفوة لا يعاجله بالعقوبة .

الثاني : إذا استغنى في خدمته وأينع ظله في دولته لا يطمع في ماله وثروته .

الثالث : إذا سأله حاجة لا يتوقف في قضاء حاجته .

وينبغي أن لا يمنعه من ثلاثة أشياء وهي : متى أحب أن يراه لا يمنعه من رؤ يته ، وأن لا يسمع في حقه كلام مفسد ، ولا يكتم عنه شيئاً من سره ؛ لأن الوزير الصالح حافظ سر السلطان ، ومدبر أحوال المملكة ، وعمارة الولايات والخزائن ، وزينة المملكة ، وشدة الهيبة والقدرة ؛ وله الكلام على الأعمال واستماع الأجوبة ، وبه يكون سرور الملك وقمع أعدائه . وهو أحق الناس بالاستماع له وتفخيم القدر ، وتعظيم الأمر . وقال لقمان لابنه : أكرم وزيرك ، لأنه إذا رآك على أمر لا يجوز أن يوافقك عليه .

وينبغي للوزير أن يكون مائلاً في الأمور إلى الخير ، متوقياً من الشر ؛ وإذا كان سلطانه حسن الاعتقاد ، مشفقاً على العباد ، كان له عوناً على ذلك وأمره بالازدياد ؛ وإذا كان سلطانه ذا حنق أو كان غير ذي سياسة ، كان على الوزير أن يرشده قليلاً قليلاً بألطف وجه ، ويهديه إلى الطريق المحمودة . وينبغي أن يعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ؛ وينبغي أن يعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير ويعلم أنه أول إنسان يحتاج إليه السلطان .

وسئل بهرام جور : إلى كم يحتاج السلطان حتى تتم سلطنته وتتكامل بالسرور دولته ؟ فقال : إلى ستة من الأصحاب : الوزير الصالح ، ليظهر إليه سره ، ويدبر معه رأيه ويسوس أمره ، والفرس الجواد ، لينجيه يوم الحاجة إلى النجاة ، والسيف القاطع ، والسلاح الحصين ، والمال الكثير ، الذي يخف حمله ويثقل ثمنه كالجوهر واللؤلؤ والياقوت ، والزوجة الحسناء لتكون مؤنسة لقلبه ، مزيلة لكربه ، والطباخ الخبير الذي إذا أمسك شيئاً دبره بلطفه .

حكمة : قال أزدشير : حقيق على الملك أن يكون طالباً لأربعة ، فإذا وجدهم احتفظ بهم : الوزير الأمين ، والكاتب العالم ، والحاجب المشفق ، والنديم الناصح ؛ لأنه إذا كان الوزير أميناً دل على بقاء الملك وسلامته ، وإذا كان الكاتب عالماً دل على عقل الملك ورزانته ، وإذا كان الحاجب مشفقاً دل

على رضا الملك عن رعيته ولم يغضب على أهل مملكته ، وإذا كان النديم صالحاً دل على انتظام الأمر وصلاحه .

حكمة : قال موبذان في عهد أنو شروان : إنه لا يمكن حفظ السلطنة إلا بالأصحاب الأخيار الناصحين المساعدين ، ولا ينفع خير الأصحاب إلا إذا كان الملك تقيّاً ؛ لأنه ينبغي أن يكون الأصل جيداً ثم الفرع . ومعنى تقوى السلطان وصدقه وصحته أن يكون صحيحاً في سائر الأمور ، يأمر بالصحة بأقواله وأفعاله ليصح بصحته سائر حشمه ورعيته ، وأن يكون واثقاً بالله تعالى ، وأن يرى أن قوته وقدرته وظفره بأعدائه ونصرته ووصوله إلى مراده من الله تعالى ، وأن لا يعجب بنفسه فإن أعجب خشي عليه الهلاك كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إن سليمان عليه السلام كان جالساً على سرير ملكه وقد حملته الريح في الجو ، فنظر سليمان إلى مملكته وطاعة الإنس والجن وانقيادهم لعظيم هيبته وسياسته ، فاضطرب السرير وهم بالانقلاب ، فقال سليمان للسرير : استقم ! فنطق السرير وقال : استقم أنت حتى نستقيم نحن ، كما قال عز من قائل : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد : ١١] .

وقال أبو عبيدة في أمثاله : « من سلك منهج الجد أمن العثار» . ويجب أن يكون الوزير عالماً عاقلاً شيخاً ؛ لأن الشاب وإن كان عاقلاً لا يكون في التجربة كالشيخ ، والذي يتعلمه الناس من تجارب الأيام لا يتعلم إلا من المشايخ . والوزير زين السلطنة ، والزين يجب أن يكون صالحاً طاهراً من الشين . ويحتاج الوزير إلى خمسة أشياء لتحمد خبرته ، وتحسن سيرته : التيقظ ليظهر في كل أمر يدخل فيه له وجه المخرج منه ، والعلم حتى تتضح له الأمور الحقيقية ، والشجاعة حتى لا يخاف من شيء في غير موضع الخوف ، والصدق لئلا يعمل مع أحد غير الصحيح ، وكتمان سر السلطان إلى أن يدركه الموت .

قال أزدشير بن بابك : يجب أن يكون الوزير ساكناً ، متمهلاً ، شجاعاً ، واسع الصدر ، حسن المقال ، مليح الوجه ، مستحيياً ، صامتاً حيث

يحسن الصمت ، ومتكلماً إذا حسن الكلام ، ومع ذلك يجب أن يكون تقيّاً حسن المذهب ليطهر نفسه وينفي عنها كل ما لا يليق . ولا بد من حسن الاعتقاد ؛ وينبغي أن يكون ذا تجارب ليسهل الأمور على الملك ، متيقظاً لينظر عواقب الأمور ، ويخاف عليه من تصاريف الدهور ، ويتحفظ أن يصيبه عيب الزمان . وكل ملك كان وزيره له محبّاً وعليه مشفقاً ، كان ذلك الوزير كثير الأعداء ، وكان أعداؤه أكثر من أصدقائه . ولا يجوز للسلطان أن يسمع في وزيره كلام المحرضين عليه الساعين به إليه ليحسده أصدقاؤه ، وتنكبت أعداؤه . ويجب أن يكون الوزير محمود الطريقة ، حتى إذا رأى في الملك خلة مذمومة غير رشيدة رده إلى العادة المستقيمة الحميدة من غير غلظة شديدة ، لأن الملك إذا كان على ما لا يريده وسمع ما يكرهه منه من التقريع عمل شرّاً من ذلك ؛ والدليل على ذلك أن الباريء تعالى لما أرسل موسى إلى فرعون بأمره قال عز من قائل : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً** ﴾ [طه : ٤٤] وإذا كان الحق سبحانه وتعالى أمر نبيه عليه السلام أن يقول لعدوه قولاً ليناً فالناس أجدر أن يلينوا أقوالهم . وإن كان السلطان يخشن كلامه ، فلا يجوز للوزير أن يحقد عليه ، ويصبر على كلامه في قلبه ، فإن قدرة الملك تطلق لسانه فينطق بما يريد . وإذا كان الوزير محبّاً للملك ، صحيح المقال ، حسن الفعال ، كان له عوناً على ذلك وأمره بالملازمة لذلك ؛ ولا يجوز أن يعدد حسناته على الملك ولا يمتن بها عليه . قال أهل الفطنة : إذا أحسنت إلى أحد وعددت حسناتك عليه ، كان شرّاً من الامتنان تقريعك عليه .

وينبغي أن يعلم الوزير وسائر خاصة الملك أنهم مهما فعلوه من حسن فإن ذلك بإقبال الملك وبركة ظله انفعل ، فالمنة حينئذ تصلح أن تكون له على الناس . وأعظم فساد ينشأ في دولة الملك يكون من أمرين : أحدهما من الوزير الخائن ، والثاني من نية الملك الرديئة الفاسدة .

قال أنو شروان : شر الوزراء من جرأ السلطان على الحرب ، وجرأه على القتال في موضع يمكن أن ينصلح الحال بغير حرب ؛ لأن الحرب في سائر الأحوال تفني ذخائر الأموال ، وفيها تبذل كرائم النفوس ومصونات الأرواح .

وقال أيضاً : كل ملك كان وزيره جاهلاً فمثله كمثل الغيم الذي يبدو ويظهر ، ولا يندي ولا يمطر .

حكمة : في كتاب وصايا أرسطاطاليس : كل أمر ينقضي على يد غيرك بلا حرب ولا خشونة فهو خير مما تقضيه بيدك .

وترتيب الوزراء أنهم متى أمكنهم أن يحاربوا بالكتب فليحاربوا ، وإن لم تتأت الأمور بالاحتيال والتدبير ، فليحتالوا في تأتيها بعطاء الأموال وبذل الصلات والنوال . ومتى انهزم عسكر عفوا عن جنود الجند ولا يستعجلوا بقتلهم ؛ لأنه قد يمكن قتل الأحياء ولا يمكن إحياء القتلى ، فإن الرجل يصير رجلاً في أربعين سنة ؛ ومن مائة رجل يكون رجل يصلح لخدمة الملوك . وإن أسر أحد من الجند من أصحاب الملك ، كان على الوزير أن يفكه ويفديه ويخلصه ويشتريه ، ليسمع الجند بصنيعه فتقوى قلوبهم إذا باشروا حروبهم . وعلى الوزير أن يحفظ أرزاق الجند كل إنسان على قدره ، وأن يدرب الرجال الشجعان بآلات الحرب ، وأن يخاطبهم بـأحسن كلام ، ويلين لهم في الخطاب ، ويلطف بهم في الجواب ، فإن الجند قد قتلوا كثيراً من الوزراء في قديم الأيام ، وسالف الأعوام . ومن سعادة السلطان ويمن طالعه وتوحده أن يسهل الله له وزيراً صالحاً ، ومشيراً ناصحاً . وقال رسول الله ﷺ : « **إذا أراد الله بأمير خيراً قيض له وزيراً نصيحاً صادقاً صبيحاً ، إن نسي ذكره وإن استعان به أعانه** » .

قال مؤلف الكتاب : إن الله سبحانه وتعالى يظهر قدرته في كل حين وزمان ، ووقت وأوان ، ويصطفي جماعة يختارهم من عباده مثل السلاطين والوزراء وأكابر العلماء ليعمر بهم الدنيا .

ومن عجائب الزمان حديث البرامكة الذين لم يوجد لهم في الدنيا نظير في الكرم والعطاء ، وبذل المعروف والسخاء ، وكان تحت حكمهم الولايات الوافرة المرتفعات ؛ وبعد انقراضهم فسدت أحوال الوزراء ، ولم يبق لخدمة الملوك رونق ولا نصارة إلى أن أوجد الله تعالى بركات آل سلجوق وظل دولتهم

إلى النظام ، وأوصلهم إلى درجة الوزراء المتقدمين وأرفع ، بحيث إنه لم يبق أحد في الدنيا من أهل الفضل والأدباء ، وأبناء السبيل الغرباء ، من شريف ووضيع ، إلا هو مشمول بإحسانهم ، مغمور بامتنانهم . ولم يكن أحد من خيرهم محروماً ، وإنما ذكرنا هذا ليعلم من يقرأ كتابنا هذا الفرق بين الصالح وغير الصالح .

حكمة : قال بزرجمهر : لا تقاس الأشياء بعضها ببعض ؛ لأن جوهر الناس أجلُّ من كل جوهر ، وإنما زينة الدنيا جميعها بالناس ، والباري تعالى لا ينسب إلى الخطأ وهو واهب الصلاح لمن يشاء ، وأنه يؤتي كل أحد ما يصلح له ويليق به . فينبغي أن يكون وزراء الملوك ومدبرو دولتهم على هذه الصفة ، وأن يحفظوا رسوم المتقدمين وطرائقهم ، وأن يلتمسوا الأموال التي تؤخذ من الرعية في أوقاتها وأحيانها، وعند وجوبها وإتيانها . وليعرفوا الرسم ، ويحملوا الرعية بحسب طاقتها وقدرتها ، وأن يكونوا في تصيدهم كصائد الكركي لا قاتل العصفور . ولا يجوز أن يحرصوا على تناول أموال المواريث ما دام الوارث موجوداً ، فالطمع في ذلك مشؤوم غير جائز . ويجب عليهم استمالة قلوب الرعية والحشم ، بهبات الفوائد والنعم ؛ ليعلموا أن كفايتهم وسمو مرتبتهم وصلاحهم منوط بصلاح الرعية ، ليحسن ذكرهم في الدنيا وينالوا جزيل الثواب في العقبى .

الباب الثالث

في ذكر الكتاب وآدابهم

قالت العلماء ليس شيء أفضل من القلم ؛ لأنه به يمكن إعادة السالف والماضي . ومن فضل القلم وشرفه أن الله تعالى أقسم به فقال عز من قائل : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾ [القلم : ١] . وقال تعالى : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق : ٣ ـ ٥] . وقال رسول الله ﷺ : « **أول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو سائر إلى يوم القيامة** » الحديث . قال عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ [يوسف : ٥٥] . قال : معناه كاتب حاسب . وقال : إن القلم صائغ الكلام .

حكمة : قال ابن المعتز : القلم معدن والعقل جوهر ، والقلم صائغ والخط صناعة . قال جالينوس : القلم طبيب الكلام . قال بليناس : القلم طلسم كبير . قال إسكندر : الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم ، والقلم أدب المتعلمين وبضاعتهم ، وبه يعرف رأي كل إنسان من قريب وبعيد . ومهما كان الرجل مجرباً للزمان فإنه ما لم ينظر في الكتب لا يكون كامل العقل ؛ لأن مدة عمر الإنسان معلومة ، ومعلوم أيضاً أن في هذه المدة القريبة والعمر القصير كم يمكنه أن يدرك بتجربته ، ومعلوم أيضاً كم يمكنه أن يحفظ بقلبه . السيف والقلم حاكمان في جميع الأشياء ، ولولا السيف والقلم ما قامت الدنيا .

وأما الكتاب فلا يجوز لهم أن يعرفوا أكثر من حدود الكتابة ليصلحوا لخدمة الأكابر . وقالت الحكماء والملوك القدماء : ينبغي أن يكون الكاتب عالماً بعشرة أشياء : الأول بعد الماء وقربه تحت الأرض ، ومعرفة استخراج الإفتاء ، ومعرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما في الصيف والشتاء ، وسير الشمس والقمر والنجوم ، ومعرفة الاجتماع والاستقبال ، والحساب بالأصابع ، وحساب الهندسة ، والتقويم واختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين ، ومعرفة الطب والأدوية ، ومعرفة ريح الجنوب والشمال ، وعلم الشعر والقوافي . ومع هذا كله ينبغي أن يكون الكاتب خفيف الروح ، طيب اللقاء ، عالماً ببراية القلم وتدبيره وقطه ورفعه وخطه . ومهما كان في قلبه أظهره بسنان قلمه ؛ وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه . وينبغي أن يعلم أي حرف يجوز أن يمد ، وأي حرف ينبغي أن يكون مجتمعاً متصلاً . وأن يكون الخط مبيناً ، ويعطي كل حرف حقه ؛ كما يحكى أنه كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامل ، فكتب إلى عمرو بن العاص كتاباً ولم يظهر سين « بسم الله الرحمن الرحيم » فاستدعاه عمرو وقال له : أظهر أولاً سين « بسم الله » ثم توجه بعد ذلك إلى عملك . وأول ما ينبغي للكاتب أن يعلم براية القلم فإن الإنسان إذا كان يحسن الخط ويعرف أن يبري قلمه فإن الخط على كل حال يجيء صالحاً .

حكاية : كان لشاهنشاه عشرة من الوزراء ، وكان في جملتهم الصاحب إسماعيل بن عباد ، فاجتمع الوزراء على تنكيسه واتفقوا على التضريب عليه ، وقالوا : إن الصاحب لا يقدر أن يبري قلمه ؛ فلما علم بذلك شاهنشاه جمعهم جملتهم ، فقال لهم الصاحب : أي أدب فيكم ليس لي مثله حتى تتجاسروا أن تتحدثوا عني بحضرة شاهنشاه ؟ وأن أبي علمني الوزارة ولم يعلمني التجارة ؛ أقل أدبي براية القلم ، وهل فيكم من يقدر أن يكتب كتاباً تامّاً بقلم مكسور الرأس ؟ فعجز الجماعة عن ذلك ، فقال له شاهنشاه : اكتب أنت ! فأخذ الصاحب قلماً وكسر رأسه وكتب به درجاً تامّاً ؛ فأقر الجماعة بفضله ، واعترفوا بسداده ونبله .

وأجود الأقلام ما كان مستقيماً ، أصفر اللون رقيق الوسط . والقلم المحرف من جانبه الأيمن يصلح للخط العربي والفارسي والعبري ، واللسان الدري يجب أن يكون قلمه محرفاً من الجانب الأيسر . وخير الأقلام ما وصفه يحيى بن جعفر البرمكي في كتاب كتبه إلى يحيى بن ليث : قلم لا غليظ ولا رقيق ، وسطه دقيق ، يجب أن تكون السكين التي يبرى بها الأقلام في غاية الحدة ، وأن تكون براية القلم على شكل منقار الكركي محرفاً من الجانب الأيمن ، وينبغي أن يكون المقط الذي يقط عليه في غاية الصلابة ، ويجب أن تكون الأنقاش فارسية خفيفة الوزن ، والكاغد صقيلاً متساوياً ، وأن يجاد حل الأنقاش ، وكل حرف من ثلاثة أحرف يجب أن يمد ، وما كان أقل لا يجوز مده ، لأنه يتوحش بذلك الخط ، وأن تكون صور الحروف يشبه بعضها بعضاً ، ولا يقدر على ذلك إلا حكيم عاقل أو من تعودت بذلك أنامله .

وكان عبد الله بن رافع كاتباً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : كنت أكتب يوماً فقال لي أمير المؤمنين أَلِقْ دواتك ، وأطل جلفة قلمك ، ووسع ما بين السطور ، واجمع ما بين الحروف . وكان عبد الله بن جبلة كاتباً محسناً فقال لغلمانه : لتكن أقلامكم بحرية ، فإن لم تكن بحرية فلتكن صفراً ؛ واقطعوا عقد الأقلام لئلا تنعقد الأمور ، ولا يجوز إنفاذ كتاب بغير ختم فإن كرم الكتاب ختمه .

وقال عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إني ألقي إلي كتاب كريم** ﴾ [النمل : ٢٩] . أي مختوم . وأمر النبي ﷺ أن يكتب كتاباً إلى العجم وقال : « **إنهم لا يريدون كتاباً بغير ختم** » فختمه بخاتمه المبارك ؛ وكان عليه ثلاثة أسطر محمد رسول الله[١] .

خبر : روى صخر بن عمرو أن رسول الله ﷺ لما كتب كتاباً إلى النجاشي

---

(١) أي « محمد » سطر ، و« رسول » سطر ، و « الله » سطر .

رماه على التراب ثم أنفذه ، فلا جرم أنه أسلم . ولما كتب كتاباً إلى كسرى أنوشروان[1] لم يلقه على التراب ، لا جرم أنه لم يسلم . وقال ﷺ : « **تربوا كتبكم ، فإنه أنجح لحوائجكم** » . وقال : « **تربوا الكتاب ، فإن التراب مبارك** » . وإذا كتب الكتاب فليقرأه قبل طيه فإن رأى فيه خطأ تداركه وأصلحه . وينبغي أن يجتهد الكاتب أن يكون الكلام قصيراً والمعنى طويلاً ، وأن لا يكرر كلمة يكتبها ، وأن يحترز من الألفاظ الثقيلة الغثة ليكون كاتبها محموداً . وفي باب الكتابة كلام طويل كثير إن ذكرناه طال الكتاب ، ونقتنع منه بهذا القدر فقد قيل خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل .

* * *

(١) قوله أنوشروان كذا في النسخ ولعله ابرويز فإن أنوشروان لم يدرك زمن النبوة ا هـ .

الباب الرابع

في سمو همم الملوك

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اجتهد أن لا تكون دنيء الهمة ، فإني ما رأيت أسقط لقدم الإنسان من تداني همته . وقال عمرو ابن العاص : المرء حيث وضع نفسه . يريد : إن أعز نفسه علا أمره ، وإن أذلها ذل وهان قدره . وتفسير معنى الهمة أن يرفع نفسه ، فإن أنفة القلب من همم الأكابر ؛ لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها ؛ ولا يرفع أحد قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه . وإعزاز المرء نفسه أن لا يختلط بالأراذل ، ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ، ولا يقول ما يعاب به . والهمة والأنفة للملوك ؛ لأن الله ركب فيهم هذه الخصلة ليتعلمها منهم الوزراء والندماء كما جاء في الحكاية :

حكاية : أمر أبو الدوانيق لرجل بخمسمائة درهم ، فقال أحمد بن الخصيب : لا يجوز للملك أن يهب ما دون الألف من الأعداد . وكان هارون الرشيد يوماً راكباً في موكبه ، فسقط فرس رجل من عسكره ، فقال هارون : ليعط خمسمائة درهم ! فأشار إليه يحيى بعينه وقال : هذا خطأ ؛ فلما نزلوا قال الرشيد : أي خطأ بدا مني حتى أشرت إلي بعينك ؟ فقال لا يجوز أن يجري على لسان أحد من الملوك أقل من الألف من الأعداد ؛ فقال الرشيد : فإن اتفق أمر لا يجوز أن يعطى فيه أكثر من خمسمائة درهم مثل هذا فكيف يقال ؟ فقال : قل ليعطى فرساً ، فيدفع إليه فرس على جاري العادة والرسم ، وتكون قد نزهت

همتك عن ذكر الحقير . ولهذا خلع المأمون ولده من ولاية عهده ، وذلك أن المأمون اجتاز بحجرة العباس فسمعه يقول لغلامه : يا غلام قد رأيت بباب الرصافة بقلاً حسناً ، فخذ نصف درهم وصل إلى باب الرصافة وائتني بشيء منه ! فناداه المأمون : من الآن علمت أن للدرهم نصفاً، اذهب فأنت لا تصلح لولاية العهد وتدبير المملكة ولا يأتي منك صلاح ولا فلاح .

حكمة : في وصية نامة أزدشير لولده : إذا أردت أن تهب لأحد من ولدك شيئاً فاجتهد أن لا يكون عطاؤك أقل من دخل ولاية أو قرية ، أو قيمة بلد أو رستاق ، يستغني به الشخص الذي تهبه ، وتزول حاجته ، ويستغني أعقابه به وأولاده ما عاشوا ، فيحصل بذلك في حساب الأحياء لا في حساب الأموات ؛ واجتهد أنك لا ترغب في التجارة بوجه من الوجوه ، فإن ذلك يدل على دناءة همة الملك .

حكمة : يقال إنه كان للملك هرمز بن سابور وزير ، فكتب إليه كتاباً يذكر فيه أنه وصل من جانب البحر تجار معهم اللؤلؤ والياقوت والجواهر النفيسة القيمة ، وأنني ابتعت منهم برسم الخزانة بمبلغ ألف دينار ؛ والآن قد حضر فلان التاجر وهو يطلب الجوهر بربح كثير ، فإن رغب مولانا فليرسم بما يرى . فكتب هرمز جوابه وقال : مائة ألف ومائة ألف مثلها وأمثالها ليس لها في أعيننا خطر ، ولا نرغب فيها بوجه من الوجوه ، وإذا عملنا بحق التجارة فمن يعمل بحق الإمارة والسلطنة ؟ فانظر أيها الجاهل لنفسك ، ولا تعد لمثل هذا الكلام ، ولا تخلط في أموالنا درهماً واحداً ولا دانقاً فرداً من أرباح التجارة ، فإن ذلك يسقط قيمة الملك ويزري بحسن اسمه ، ويعود بقبح قاعدته ورسمه ، ويضر بصيته في حال حياته وبعد وفاته .

حكاية : حكي أن الأمير عمارة بن حمزة كان في بعض الأيام جالساً في مجلس الخليفة المنصور ، وكان يوم نظره في المظالم ، فنهض رجل على قدميه وقال : أنا مظلوم ؛ فقال : من ظلمك ؟ فقال : عمارة بن حمزة اغتصب ضياعي وابتز ملكي وعقاري . فأمره المنصور أن يقوم من مقامه ويساوي خصمه

للمحاكمة ، فقال عمارة : يا أمير المؤمنين إن كانت الضياع له فما أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ومالي حاجة في محاكمته ، وما أبيع مكاني الذي أكرمني به أمير المؤمنين بضياع ولا غيرها . فتعجب الأكابر الحاضرون من علو همته ، وشرف نفسه ومروءته .

الهمة والنهمة على شكل واحد ، وكل إنسان له منهما نصيب ، فواحد بالسخاء وإطعام الطعام ، وآخر بالعلم ، وآخر بالعبادة والقناعة والزهادة وترك الدنيا وطلب العقبى ، وآخر بطلب الزيادة . وأما الهمة بالسخاء وبذل المال ، وإسداء النوال فينبغي أن تكون كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إن يحيى بن خالد خرج يوماً من دار الخلافة راكباً إلى داره ، فرأى على باب الدار رجلاً ، فلما قرب نهض قائماً وسلم عليه وقال : يا أبا جعفر أنا محتاج إلى ما في يدك ، وقد جعلت الله وسيلتي إليك ؛ فأمر يحيى أن يفرد له موضع في داره ، وأن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم ، وأن يكون طعامه من طعامه المختص به . فبقي على ذلك شهراً كاملاً ، فلما انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم ، فأخذ الرجل الدراهم وانصرف ، فقيل ليحيى في ذلك ، فقال : والله لو أقام مدة عمره ، وطول دهره ، ما منعته صلتي ولا قطعت عنه ضيافتي .

حكاية : كان لجعفر بن موسى الهادي جارية عوادة تعرف ببدر الكبرى ، ولم يكن في زمانها أحسن وجهاً منها ولا أحذق بصناعة الغناء وضرب الأوتار منها ، وكانت في غاية الكمال ونهاية الجمال ، فسمع بخبرها محمد ابن زبيدة الأمين ، فالتمس منه أن يبيعها له ، فقال له جعفر : إنه لا يجيء من مثلي بيع الجواري ، ولا المساومة في السراري ، ولولا أنها مزينة داري ، لأنفذتها إليك ، ولم أبخل بها عليك . ثم بعد ذلك بأيام جاء محمد ابن زبيدة إلى داره ، فرتب مجلس الشراب ، وأمر بدراً أن تغني له وتطربه ، فأخذ محمد في الشراب والطرب ، ومال على جعفر بكثرة الشرب حتى أسكره ، وأخذ الجارية معه إلى داره ، ولم يمد إليها يده من شرف نفسه وهمته ، ثم رسم من الغد

باستدعاء جعفر ، فلما حضر قدم بين يديه الشراب وأمر الجارية أن تغني من وراء الستر ، فسمع جعفر غناءها فلم ينطق من شرف نفسه ، ولم يظهر تغيراً في محاضرته ، ثم أمر محمد الأمين أن يملأ ذلك الزورق الذي ركب فيه جعفر إليه دراهم ، فكانت ألفي ألف بدرة وجملتها عشرون ألف ألف درهم ، حتى استغاث الملاحون وقالوا : ما بقي الزورق يحمل شيئاً آخر ؛ وأمر بحمله إلى دار جعفر والجارية أيضاً .

هكذا كانت همم الأكابر . وسئل بعض الحكماء : من أعلى الناس حالاً ؟ فقال : أعلاهم همة ، وأكثرهم علماً ، وأغزرهم فهماً ، وأصفاهم حالاً . فقيل له : فبمن ينبغي أن يتوصل ليخلص من نحوسة حظه وضائقته ؟ فقال : بالملوك والأكابر ، وذوي الهمم العالية ، والنفوس الشريفة السامية ، كما قيل : جاور بحراً أو ملكاً[1] .

حكاية : قال سعد بن سالم الباهلي : اشتدت بي الحال في زمن الرشيد ، واجتمع عليّ ديون يعجزني بعض قضائها ، وعسر عليّ أداؤها ، واحتشد ببابي أرباب الديون ، وتزاحم الطالبون ، ولازمني الغرماء ، فضاقت حيلتي ، وازدادت فكرتي ، فقصدت عبد الله بن مالك الخزاعي والتمست منه أن يمدني برأيه ، وأن يرشدني إلى باب الفرج ، فقال عبد الله : لا يقدر أحد على خلاصك من محنتك وهمك ، وضائقتك وغمك ، إلا البرامكة ؛ فقلت : ومن يقدر على احتمال تكبرهم ، والصبر على تيههم وتجبرهم ؟ فقال : تصبر على ذلك لمصلحة أحوالك ! فنهضت إلى الفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد ، فقصصت عليهما قصتي وأبديت لهما غصتي ؛ فقالا : أعانك الله وأقام لك الكفاية ! فعدت إلى عبد الله بن مالك ضيق الصدر ، منقسم الفكر ، منكسر القلب ، وأعدت عليه ما قالاه ، فقال : يجب أن تكون عندنا اليوم لننظر ما يقدره الله تعالى ؛ فجلست عنده ساعة ، وإذا بغلامي قد أقبل فقال : ببابنا بغال

---

(١) مثل يضرب في التماس الخصب والسعة (انظر المستقصى في أمثال العرب : ٤٩/٢) .

كثيرة بأحمالها ومعها رجل يقول أنا وكيل الفضل وجعفر ، فقال عبد الله : أرجو أن يكون قد جاء الفرج ، فقم وانظر ما الشأن ! فنهضت وأسرعت عدواً فرأيت ببابي رجلاً معه رقعة مكتوب فيها : إنك لما عدت من عندنا مضيت إلى الخليفة وعرفته ما قد أفضت بك الحال إليه ، فأمر أن أحمل إليك من بيت المال ألف ألف درهم ، فقلت له : هذه الدراهم يصرفها إلى غرمائه فمن أين يقيم وجوه نفقاته ؟ فأمر بثمانمائة ألف درهم أخرى ؛ وقد حملت أنا من خاصتي ألف ألف درهم ، فصارت الجملة ألفي ألف درهم وثمانمائة ألف درهم ، أصلح بها أحوالك .

حكاية : يقال إنه كان لأنو شروان نديم ، وكان في مجلس الشراب جام[1] من ذهب مرصع[2] باللؤلؤ والجواهر النفيسة فسرقه[2] النديم ونظر إليه أنو شروان فرآه وهو يخفيه ، فجاء الشرابي وطلب الجام فلم يجده ، فنادى : يا أهل المجلس قد ضاع لنا جام مرصع بالجواهر ، فلا يخرجن أحد حتى يرد الجام ! فقال أنو شروان : مكنهم من الخروج ، فإن الذي سرق الجام لا يرده ، والذي رآه لا يقر عليه . فأين كان السخاء وعلو الهمة كانت الراحة والخير، ولكن من ينكر الإحسان ويجحد الامتنان لا أصل له ، ومن لا أصل له لا يقدر أن يستر فكره .

حكاية : يقال إن الرشيد استدعى صالحاً في التاريخ الذي تغير فيه على البرامكة ، وقال : يا صالح صر إلى منصور بن زياد وقل له لنا عليك عشرة آلاف ألف درهم نريد أن تحصلها في هذه الساعة ، وإن لم يحصلها إلى المغرب فخذ رأسه عن جسده وأْتني به ، وإياك ومراجعتي في شيء من أمره . قال صالح : فصرت إلى منصور وعرفته ما ذكره الرشيد من سياسته ، فقال له : هلكت ؛ وحلف أن جميع أسبابه وأملاكه لا يقوم بمائة ألف درهم فمن أين يقوم بتحصيل عشرة آلاف ألف درهم ؟ قال صالح : فقلت له دبر حيلة في أمرك ،

---

(١) الجام : إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها ، وقد غلب استعمالها في قدح الشراب .
(٢) جاء في المعجم الوسيط ج ١ ص ١٤٩ أن الجام مؤنثة .

فإني لا أقدر أن أمهل ولا أحابي فيما أمر به أمير المؤمنين ؛ فقال : احملني إلى بيتي أودع أولادي وأهلي وصبيتي وأوصي أقاربي ؛ فجعل منصور يودع أهل بيته ، وارتفع في منزله البكاء والاستغاثة والصراخ . قال صالح : فقلت له ربما يكون لك فرج على أيدي البرامكة ، فامض بنا إليهم ! فأخذ يبكي ويصرخ حتى أتينا يحيى بن خالد ، فقصصت عليه القصة وشرحت عليه ما ناله ، فاغتم لذلك وأطرق إلى الأرض ساكتاً زماناً ، ثم رفع رأسه ، ثم استدعى خازنه وقال له : كم في خزانتنا من الدراهم؟فقال: مقدار ألف ألف درهم؛ فأمر بإحضارها، وأنفذ قاصداً إلى الفضل ولده ، فقال للرسول : قل له إنه عرض بيع ضياع جليلة ، فأنفذ ما عندك من الدراهم ! فأنفذ ألفي ألف درهم ؛ وأنفذ بآخر إلى جعفر وقال للرسول : قل له اتفق لنا شغل ونحتاج فيه إلى شيء من الدراهم ؛ فأنفذ جعفر ألفي ألف درهم ، فقال منصور : يا مولاي قد تمسكت بك وما أعرف خلاصي إلا منك وإتمام بقية ديني ؛ فأطرق يحيى إلى الأرض وبكى وقال : يا غلام إن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان وهب جاريتنا العوادة دنانير جوهرة عظيمة القيمة ، فامض إليها وقل لها تنفذ تلك الجوهرة ، فمضى الغلام وأتى بها إليه ، فقال يحيى : يا صالح أنا ابتعت هذه لأمير المؤمنين من التجار بمائتي ألف درهم ، ووهبها أمير المؤمنين لدنانير العوادة ، وإذا رآها عرفها وقد تم الآن مال مصادرة منصور ، يا صالح قل لأمير المؤمنين ليهب لنا منصوراً . قال صالح : فحملت المال والجوهرة إلى الخليفة ، فبينما نحن في الطريق أنا ومنصور إذ سمعته يتمثل ببيت من الشعر ، فتعجبت من رداءته وفساده ، وخبث أصله وميلاده ، وهو هذا البيت :

فما استوهبتني متمسكاً بي ولكن خفت من ألم النبال

قال صالح : فحردت عليه وقلت : ما على وجه الأرض خير من البرامكة ولا شر منك ، اشتروك وأنقذوك من الهلاك ، ومنوا عليك بالفكاك ، ولم تشكرهم وتحمدهم ، ولم تفعل فعل الأحرار ، وقلت ما قلت ! ثم مضيت إلى الرشيد وقصصت عليه القصة ، وعرفته ما جرى ، وكتمت عنه ما جرى من منصور من خبث الطوية مخافة على نفسه من الرشيد ؛ فعند ذلك تعجب وأمر

برد تلك الجوهرة وقال : شيء وهبناه لا يجوز أن نعود فيه . فأعدتها إلى يحيى وقصصت عليه القصة وما جرى من منصور من سوء فعله . قال يحيى : إذا كان الإنسان مقلاً ضيق الصدر مشغول الفكر بضائقة اليد ، فمهما قاله ويقوله فليس ذلك من قلبه ؛ وجعل يطلب العذر لمنصور . قال صالح : فبكيت وقلت لا يعود الفلك الدائر يخرج رجلاً مثلك في الوجود ؛ فوا أسفا كيف يتوارى رجل مثلك له خلق مثل أخلاقك تحت التراب !

حكاية : يقال إنه كان بين يحيى بن خالد البرمكي وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوة في السر ما كانا يظهرانها ، وكان سبب تلك العداوة التي بينهما أن هارون الرشيد كان يحب عبد الله بن مالك إلى أبعد غاية ، بحيث أن يحيى ابن خالد وأولاده كانوا يقولون إن عبد الله يسحر أمير المؤمنين ؛ حتى مضى على ذلك زمان والحقد في صدورهما وقلوبهما ، فولى الرشيد ولاية أرمينية لعبد الله وسيره إليها . ثم إن رجلاً من أهل العراق كان له أدب وذكاء وفطنة ، فضاق ما بيده وفني ماله ، واختل عليه حاله ، فزور كتاباً عن يحيى بن خالد إلى عبد الله ابن مالك، وسافر به إلى أرمينية ، فحين وصل إليها قصد باب عبد الله وسلم الكتاب إلى بعض حجابه ، فأخذ الحاجب الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن مالك ، ففضه وقرأه وتدبره وعلم أنه مزور ، فأذن للرجل فدخل عليه ، فقال له : حملت بعض المشقة وجئتني بكتاب مزور ، ولكن طب نفساً فإنَّا لا نخيب سعيك ! فقال الرجل : أطال الله بقاء الأمير ، إن كان قد ثقل عليك وصولي إليك فلا تحتج في منعي لحجة ، فأرض الله واسعة ، والرازق حي متين ، والكتاب الذي وصل صحيح غير مزور ؛ فقال عبد الله : أنا أعتمد معك أمرين ، وهما أن أكتب إلى وكيلي ببغداد وآمره أن يسأل عن حال هذا الكتاب الذي أتيت به ، فإن كان صحيحاً أعطيتك إمارة بعض بلادي ، وإن آثرت العطاء أعطيتك مائة ألف درهم مع الفرس والجنيب والحلة والتشريف . وإن كان الكتاب مزوراً أمرت أن تضرب مائتي خشبة وأن تحلق محاسنك . ثم أمر عبد الله أن يحمل إلى حجرة الحبس وأن يحمل إليه ما يحتاج إليه ، وكتب كتاباً

إلى وكيله ببغداد أنه قد وصل إلينا رجل معه كتاب يذكر أنه من يحيى بن خالد ، وأنا سيء الظن في هذا الكتاب ، فيجب أن تتحقق الحال في هذا الكتاب لتعلم صحته من سقمه ، وعرفني الجواب . فلما وصل كتاب عبد الله إلى وكيله ركب ومضى إلى باب دار يحيى بن خالد، فوجده مع ندمائه وخواصه جالساً، فسلم الكتاب إليه، فقرأه يحيى بن خالد ثم قال للوكيل : عد إلينا من الغد لأكتب لك الجواب ! ثم التفت إلى ندمائه وقال لهم: ما جزاء من حمل عني كتاباً مزوراً إلى عدوي ؟ فقال كل واحد منهم شيئاً يصف نوعاً من العذاب ، ويذكر جنساً من العقاب ، فقال يحيى : كلكم أخطأتم ، وهذا الذي ذكرتم من خسة الأصل ودناءته ، وكلكم تعرفون قرب عبد الله من أمير المؤمنين ، وتعرفون ما بيني وبينه من البغض ، والآن قد سبب الله هذا الرجل وجعله متوسطاً في الصلح بيننا ، ووفقه لذلك ، وقيضه ليمحو حقد عشرين سنة من قلوبنا وتنصلح بواسطته شؤوننا ، وقد وجب علي أن أفي لهذا الرجل بتأميله ، وأصدق ظنونه ، وأكتب له كتاباً إلى عبد الله ليتوفر على إكرامه وإعزازه واحترامه وسمو همته . ثم إنه طلب الكاغد والدواة وكتب إلى عبد الله بخط يده : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ وصل كتابك ـ أطال الله بقاءك ـ وقرأته وفهمته ، وسررت بسلامتك ، وابتهجت باستقامتك ، وكان ظنك أن ذلك الحر زوَّر عني كتاباً ، ولفق عني خطاباً ، وليس كذلك ؛ فإن الكتاب أنا الذي كتبته ، وعلى يديه أنفذته ، وليس بمزور عني ، وتوقعي من كرمك وحسن شيمك أن تفي لذلك الحر الكريم بأمله ، وتعرف له حرمة قصده ، وأن تخصه منك بغامر الإحسان ، ووافر الامتنان ، فمهما فعلته في حقه فأنا المعتد به والشاكر عليه . ثم عنون الكتاب وختمه وسلمه إلى الوكيل ، فأنفذه الوكيل إلى عبد الله ، فحين قرأه ابتهج بما حواه وأحضر الرجل وقال : أي الأمرين اللذين ذكرتهما تختار أن أفعل معك ؟ فقال الرجل : العطاء أحب إلي ؛ فأمر له بمائتي ألف درهم ، وعشرة أفراس عربية ، منها خمسة بالمراكب المحلاة ، وخمسة بالجلال ، وعشرين تختاً من الثياب ، وعشرة مماليك ركاب الخيول ، وما يليق بذلك من الجواهر المثمنة ، وسيره

بصحبة مأمونه إلى بغداد . فلما وصل إلى أهله قصد باب دار يحيى بن خالد وطلب الإذن ، فدخل الحاجب وقال : يا مولانا ببابنا رجل ظاهر الحشمة جميل الهيئة حسن الجمال كثير الغلمان . فأذن له في الدخول ، فدخل إليه وقبل الأرض بين يديه ، فقال له يحيى : ما أعرفك ؛ فقال : أنا الرجل الذي كنت ميتاً من جور الزمان ، وغدر الحدثان ، فنشرتني وأحييتني ؛ أنا الذي حملت الكتاب المزور عنك إلى عبد الله بن مالك . فقال يحيى : وما الذي فعل معك ، وأي شيء أعطاك ووهب لك ؟ فقال : من بركاتك وظلك وكرمك وهمتك وفضلك أعطاني ونولني وأغناني ، وقد حملت جميع عطيته وها هي ببابك والأمر إليك ، والحكم في يديك . فقال له يحيى : صنيعك معي أكثر من صنيعي معك ، ولك علي المنة العظيمة ، واليد الجسيمة ، إذ بدلت تلك العداوة التي كانت بيني وبين ذلك الرجل المحتشم بالصداقة ، وأنت كنت في ذلك السبب ، وأنا أهب لك من المال مثل ما وهب لك . ثم أمر له من المال بمثل ما أعطاه عبد الله بن مالك .

وإنما أوردنا هذه الحكاية ليعلم من يقرؤ ها أن الإنسان إذا كانت همته عالية لا يضيع أبداً كما لم يضع ذلك الرجل ، ولو كان خسيس الطبع لالتجأ إلى عمل دنيء وتعلق بلئام الناس ، ولكنه لما كانت له همة سامية ، تهوّر وأقدم وخاطر مع رجل محتشم ، كريم الأخلاق ، طاهر الأعراق ، فوصل بذلك التهور إلى مراده . انظر إلى الرجلين الكريمين المحتشمين الزعيمين السيدين ، وإلى سمو همتهما بماذا عاملاه ، وبماذا قابلاه ، ولم يريا في مروءتهما عقوبته وعذابه ، ونال من بركتهما طلابه ، وتخلص من شدة زمانه وضائقته ، وأفلت من شر محنته ، وعاد ذا نعمة سنية ورتبة علية ، وحصل بجميل الذكر على جزيل الأجر .

حكاية : يقال إنه تفاخر عبدان : عبد لبني هاشم وعبد لبني أمية ، فكل واحد منهما قال موالي أكرم من مواليك ، فقالا :

نمضي ونجرب . فمضى مولى بني أمية إلى واحد من مواليه وشكا حالته وضائقته وتألم من فاقته ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، حتى طاف على عشرة من مواليه فاجتمع له مائة ألف درهم ، فأخذها وأحضرها بين يدي مولى بني هاشم وقال : امض أنت إلى بني هاشم وجربهم وانظر كرمهم ! فأتى مولى بني هاشم إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وشكا حاله وذكر فقره وما أفضى به الحال إليه ، فأمر له بمائة ألف درهم ، ثم مضى إلى عبد الله بن جعفر وشكا إليه فأعطاه مائة ألف درهم ، ثم مضى إلى عبد الله بن ربيعة فأعطاه مائة ألف درهم ، فمضى بالمال إلى مولى بني أمية وقال له : إن مواليك تعلموا الكرم من موالي ، ولكن عد بنا إليهم لنجربهم ثانياً ونعيد المال إليهم ! فمضى مولى بني أمية إلى مواليه وقال لهم : قد استغنيت عن هذا المال ، وقد سهل الله تعالى لي من مكان ما أسدّ به فقري ، ولم يبق لي في هذه الدراهم حاجة ، وقد أعدتها ؛ فأخذ كل واحد منهم دراهمه . وحمل مولى بني هاشم الدراهم إلى مواليه وقال لهم : قد تيسر لي من مكان ما زالت به حاجتي وانقضت ، وقد أعدت المال الذي أخذت منكم فاستعيدوه ؛ فقالوا : نحن لا نأخذ شيئاً قد وهبناه ، ولا تعود هباتنا تختلط بأموالنا .

حكمة : قال بعض الحكماء : إجلال الأكابر من الكرم وحسن الخلال ، واحتقار الناس من لؤم الأصل وقبح الخلال ، والهمة بغير آلة خفة ، وإنما الهمة مع الجد تجمل وتلطف ، وتحسن وتظرف ؛ لأن الرجل إذا كان ذا همة وجدة غير مساعد ، لم يكن له من همته سوى الانحطاط ؛ لأنه يجب أن تكون الهمة علوية والجد عالياً . وقد قيل أيضاً : الكلام بالدرجة والعمل بالقدرة . وينبغي أن تكون الهمة إلى بغداد والزاد إلى فرسخين وكذا الجلال .

حكاية : كان عبد العزيز بن مروان أميراً بمصر ، فركب ذات يوم واجتاز بموضع ، وإذا برجل ينادي ولده يا عبد العزيز ، فسمع الأمير نداءه فأمر له بعشرة آلاف درهم لينفقها على ذلك الولد الذي هو سميه ؛ ففشا الخبر بمدينة

مصر ، فكل من ولد له في تلك السنة ولد سماه عبد العزيز . وبضد ذلك كان الحاجب تاش الأمير الكبير بخراسان ، فإنه اجتاز يوماً بصيارف بخارى ورجل ينادي غلامه وكان اسم الغلام تاس ، فأمر بإزالة الصيارف ومصادرتهم ، وقال : إنما أردتم الاستخفاف باسمي . فانظر الآن بين الحر القرشي وبين المتشرف بالدراهم .

وفي هذا الباب كلام طويل ونكتفي بهذا لئلا يطول الكتاب . وينبغي أن تعلم أن الهمة وإن تأخرت فإنها توصل صاحبها إلى مراده يوماً من الزمان ؛ قال الشاعر :

سعيي لمجد ولولا صدق معرفتي ... أني سأدرك ما قد كنت أطلبه
لو كنت في خدمة السلطان ذا طلب ... للزاد ما كنت من حاميه أخطبه

وإنما المحمود في الرجال أن لا يتجاوز بهمته فوق قدره وقدرته ، لئلا يعيش مغتمّاً طول زمانه ومدته ، كما قال الشاعر :

لو كنت تقنع بالكفاية لم يكن ... بالدهر أرفه منك عيشاً فيه
أو كنت يوماً فوق ذلك طامعاً ... لم تكفك الدنيا بما تحويه
ماذا يفيد علو همتك الذي ... لا يستجيب لنيل ما تبغيه

* * *

الباب الخامس

في ذكر حلم الحكماء

أما الحكمة فإنها عطاء من الله جلت قدرته يؤتيها من يشاء من عباده . قال سقراط : مثل من أعطاه الله الحكمة وهو يعرف قدرها وهو بحرصه يعمل للدنيا وللمال الكثير ، كمثل من يكون في صحة وسلامة فيبيعهما بالتعب والنصب ، فإن ثمرة الحكمة الراحة والعلاء ، وثمرة المال التعب والبلاء . قال ابن المقفع : كان لملوك الهند كتب كثيرة بحيث كانت تحمل على الفيلة ، فأمروا حكماءهم أن يختصروها ، فاتفق العلماء في اختصارها فاختصروها على أربع[1] كلمات : إحداها للملوك وهي العدل ، والثانية للرعية وهي الطاعة ، والثالثة للنفس وهي الإمساك عن الطعام إلى وقت الجوع ، والرابعة للإنسان وهي أن لا ينظر إلى غير نفسه .

حكمة : قال بعض الحكماء : الناس أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري وذلك ناسٍ فذكروه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه .

حكمة : سئل بعض الحكماء : أي شيء أقرب ؟ فقال : الأجل ؛ فقيل : أي شيء أبعد ؟ قال : الأمل .

---

(١) في الأصل « أربعة » والصواب ما اثبتناه .

حكمة : قال لقمان الحكيم لولده : شيئان إذا حفظتهما لا تبالي بما ضيعت بعدهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

حكمة : سأل أنو شروان بزرجمهر : لأي شيء يمكن أن يجعل العدو صديقاً ؟ قال : لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب ، وكسر الزجاج إذا كان صحيحاً أسهل من تصحيحه إذا كان مكسوراً . وقال : صحة الجسم خير من شرب الأدوية ، وترك الذنب خير من الاستغفار ، وكظم الشهوات خير من كظم الحزن ، ومخالفة الهوى في الاستكبار خير من دخول النار .

حكمة : كان رجل من الحكماء المتقدمين يطوف البلاد عدة سنين وكان يعلم الناس هذه الكلمات الست وهي : من ليس له علم فليس له عز في الدنيا ولا في الآخرة ، ومن ليس له صبر فما له سلامة في دينه ، ومن كان جاهلاً لم ينتفع بعمله ، ومن لا تقوى له فما له عند الله كرامة ، ومن لا سخاء له فما له من ماله نصيب ، ومن لا طاعة له فما له عند الله حجة .

حكمة : سئل بزرجمهر : أي عز يكون بالذل متصلاً ؟ فقال : العز في خدمة السلطان ، والعز مع الحرص ، والعز مع السفه .

حكمة : سئل بزرجمهر : بماذا يؤدب البله ؟ فقال : بأن يؤمروا بكثرة الأعمال ، ويستخدموا في مشقات الأشغال ، بحيث لا يجعل لهم إلى الفضول طريقاً ولا فراغاً . قيل : وبماذا يؤدب الأخساء ؟ فقال : بإهانتهم واحتقارهم ، ليعرفوا وضاعة أقدارهم . قيل : فبماذا يؤدب الأحرار ؟ قال : بالتوقف في قضاء حوائجهم . وسئل أيضاً : من الكريم ؟ فقال : الذي يهب ولا يذكر أنه وهب .

حكمة : قيل : لأي سبب تتلف الناس نفوسهم لأجل المال ؟ فقال : لأنهم يظنون أن المال خير الأشياء ، ولا يعلمون أن الذي يراد من أجله المال خير من المال .

حكمة : قيل له : أيكون شيء أعز من الروح بحيث تعطي الناس فيه

أرواحهم ولا يبالون ؟ فقال : ثلاثة هي أعز من الروح : الدين ، والعقل ، والخلاص من الشدائد . وسئل أيضاً : في أي شيء يكون العلم والكرم والشجاعة ؟ فقال : زينة العلم الصدق ، وزينة الكرم البشر ، وزينة الشجاعة العفو عند القدرة .

حكمة : قال يونان[1] الوزير : أربعة أشياء من عظيم البلاء : كثرة العيال مع قلة المال ، والجار المسيء الجوار ، والمرأة التي لا تقية لها ولا وقار .

واتفق أهل الدنيا على أن أعمال الخلائق كلها خمسة وعشرون وجهاً : خمسة منها بالقضاء والقدر وهي : طلب الزوجة ، والولد ، والمال ، والملك ، والحياة . وخمسة منها بالكسب والاجتهاد وهي : العلم ، والكتابة ، والفروسية ، ودخول الجنة ، والنجاة من النار . وخمسة منها بالطبع وهي : الوفاء ، والمداراة ، والتواضع ، والسخاء[2] . وخمسة منها بالعادة وهي : المشي في الطريق ، والأكل ، والنوم ، والجماع ، والبول والتغوط . وخمسة منها بالإرث وهي : الجمال ، وطيب الخلق ، وعلو الهمة ، والتكبر ، والدناءة .

حكمة : ستة أشياء تساوي الدنيا : الطعام السائغ ، والولد السليم الأعضاء ، والصاحب الموافق ، والأمير المشفق ، والكلام الصحيح النظام ، والعقل التام .

حكمة : قال الحكيم : خمسة أشياء ضائعة : السراج في الشمس ، والمطر في السباخ المالحة ، والمرأة الحسناء عند الأعمى ، والطعام الطيب يقدم بين يدي الشبعان ، وكلام الله سبحانه في صدر الظالم .

حكمة : سئل الإسكندر : لم تكرم معلمك فوق كرامة أبيك ؟ فقال : إن أبي سبب حياتي الفانية ومعلمي سبب حياتي الباقية .

---

(١) وزير كسرى أنو شروان .

(٢) عدَّ أربعة .

حكمة : قال الحكيم : إذا كانت بقسمة الله تجري الأمور ، فالاجتهاد محظور ، وتاركه مشكور . وقال : إذا لم يمش معك الزمان كما تريد ، فامش مع الزمان كما يريد ، فإن الإنسان عبد الزمان ، والزمان عدو الإنسان ، وكل تنفس تنفسه فبقدره يبعد عن الحياة ويقرب من الممات .

حكمة : سأل قوم من الحكماء بزرجمهر فقالوا : عرفنا من أبواب الحكمة ما ينفع أرواحنا وأشباحنا لنجتهد فيه وما يضرنا للبعد عنه؛ فقال : اعلموا وتيقنوا أن أربعة من الأشياء تزيد في نور العين وتحد النظر ، وأربعة تنقص نورها ، وأربعة تسمن الجسم وتخصبه ، وأربعة تضعفه وتهزله ، وأربعة أشياء تحيي القلب ، وأربعة تميته ، وأربعة يصح بها الجسم دائماً ، وأربعة تكسر البدن . أما الأربعة التي تزيد في نور العين فهي : الخضرة ، والماء الجاري ، والشراب الصافي ، والنظر إلى وجوه الأحباب . وأما الأربعة التي تنقصه فهي : أكل المالح واللحم القديد ، وصب الماء على الرأس ، والنظر الدائم في عين الشمس ، ورؤية العدو . وأما الأربعة التي تسمن الجسم وتخصبه فهي : الثوب الناعم ، وخلو البال من الأحزان ، والرائحة الزكية ، والنوم في المكان الساخن . وأما الأربعة التي تضعفه وتهزله : فأكل اللحم القديد ، وكثرة الجماع ، وطول المكث في الحمام ، ونوم العشايا . وأما الأربعة التي يصح بها الجسم : فأكل الطعام في وقته ، وحفظ مقادير الأشياء ، ومجانبة الأعمال الشاقة ، وترك الحزن على غير موجب . وأما الأربعة التي تكسر البدن دائماً : فسلوك الطريق الصعب ، وركوب الفرس الحرون ، والمشي على التعب ، ومجامعة العجائز . وأما الأربعة التي تحيي القلب : فالعقل النافع ، والأستاذ العالم ، والشريك الأمين ، والزوجة الموافقة ، والصديق المساعد[1] . وأما الأربعة التي تميته : فبرد الزمهرير ، وحر السموم ، والدخان الكريه ، ومخافة العدو .

وقال سقراط الحكيم : خمسة أشياء يهلك الإنسان فيها نفسه : خديعة

---

(١) عدَّ خمسة .

الأصدقاء ، والالتفات عن العلماء ، واحتقار الرجل نفسه ، وتكبر من لا يسوى ، واتباع الهوى .

حكمة : قال سقراط : خمسة أشياء لا يشبع منها خمس : عين من نظر ، وأنثى من ذكر ، وأذن من خبر ، ونار من حطب ، وعالم من علم .

حكمة : سئل حكيم : ما أمرّ الأشياء في الدنيا وما أحلاها ؟ فقال : أمرّ الأشياء استماع الكلام الخشن ممن لا قيمة له ، والدين الفادح ، وضائقة اليد ؛ وأحلى الأشياء الولد ، والكلام الطيب ، واليسار .

حكمة : سئل حكيم : ما الموت ، وما النوم ؟ فقال : النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل .

حكمة : سئل حكيم : ما الغنى ؟ فقال : القناعة والرضا ؛ فقيل : ما العشق ؟ فقال : مرض الروح وموت في حسرة .

حكمة : سئل أرسطاطاليس : أي صديق أوثق ، وأي صاحب أشفق ؟ فقال : الصديق الأصيل أوثق ، والصاحب القديم أشفق ، وتدبير العقلاء أفضل .

حكمة : قال جالينوس : سبعة أشياء تجلب النسيان : استماع الكلام الخشن ولا يتصوره القلب ، والحجامة على خرزة العنق ، والبول في الماء الراكد ، وأكل الحوامض ، والنظر في وجه الميت ، والنوم الكثير ، والنظر في الأماكن الخراب . وقال أيضاً في كتاب الأدوية : إن النسيان يحدث من سبعة أشياء وهي : البلغم ، وضحك القهقهة ، وأكل المالح ، واللحم السمين ، وكثرة الجماع ، والسهر مع التعب ، وسائر البرودات والرطوبات فإن أكلها يضر ويجلب النسيان .

حكمة : قال أبو القاسم الحكيم : فتن الدنيا تنشأ من ثلاثة نفر : من قائل الأخبار ، وطالب استماع الأخبار ، ومتلقي الأخبار ، وهؤلاء الثلاثة لا يخلصون من الندامة .

حكمة : قيل : ثلاثة أشياء لا تجتمع مع ثلاثة : أكل الحلال مع اتباع الشهوات ، والشفقة مع ارتكاب الغضب ، وصدق المقال مع كثرة الكلام .

حكمة : قال بزرجمهر الحكيم : إن شئت أن تصير من جملة الأبدال فحول أخلاقك إلى أخلاق الصبيان الأطفال ؛ فقيل : كيف ذلك ؟ فقال : في الأطفال خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً ، وهي أنهم لا يغتمون للرزق ، وإذا مرضوا لم يشكوا من خالقهم تعالى ، وأنهم يأكلون الطعام فيجتمعون ، وإذا تخاصموا لم يتحاقدوا ويسارعون إلى الصلح ، وأنهم يخوفون فيخافون بأدنى تخويف وتدمع أعينهم .

حكمة : قال وهب بن منبه : في التوراة أربع كلمات مكتوبة وهي : كل عالم لم يكن متورعاً فهو كاللص ، وكل رجل خلا عن العقل فهو والبهيمة على مثال واحد .

حكمة : قال بعض الحكماء : أصل الزعامة العطف ، وأصل الذنب العجلة ، وأصل الذل البخل .

حكمة : قال الحكيم : ينبغي أن لا يكون الإنسان لقلبه خادماً ، وبقلبه متقدماً ، وبعادته أبله ؛ أي يتجاوز عن الجيد والرديء . وينبغي أن يسمع كلام الحكمة من غير حكيم ، فإنه قد يصيب الغرض من لم يكن رامياً .

حكمة : قال الأحنف بن قيس : لا صديق لملول ، ولا وفاء لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنيء ، ولا زعامة لسيء الخلق .

حكمة : قال ذو الرياستين : اشتكى رجل من خصم له إلى الاسكندر فقال له الإسكندر : أتحب أن أسمع كلامك فيه بشرط أن أسمع كلامه فيك ؟ فخاف الرجل وأمسك ، فقال الاسكندر : كفوا أنفسكم عن الناس لتأمنوا من أناس السوء .

حكمة : قال بزرجمهر : العوافي أربعة وهي : عافية الدين ، وعافية المال ، وعافية الجسم ، وعافية الأهل ، فأما عافية الدين ففي ثلاثة أشياء : أن

لا تتابع الهوى ، وأن تعمل بأوامر الشرع ؛ وأن لا تحسد أحداً ، وعافية المال في ثلاثة أشياء : إنعام النظر ، وأداء الأمانة ، وإخراج الحق من المال ؛ وعافية الجسم في ثلاثة أشياء : قلة الأكل ، والإقلال من الكلام ، والإقلال من النوم ، وعافية الأهل في ثلاثة : القناعة ، وحسن العشرة ، وحفظ طاعة الله تعالى .

وسئل حاتم الأصم : لأي شيء لا نجد ما وجده المتقدمون ؟ فقال : لأنكم فاتكم خمسة أشياء : المعلم الناصح ، والصاحب الموافق ، والجهد الدائم ، والكسب الحلال ، والزمان المساعد .

خبر : جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ قال : « **يا علي أقبل علي بوجهك ، واخل إلي قلبك وسمعك ، كل وغطٍّ ، واجمع وهب ، وتشدد** » فقال علي : ما معنى هذه الكلمات يا رسول الله ؟ فقال : « **كل الغضب وغط عيب أخيك ، وهب ظلم الظالم ، واجمع لذلك القبر المظلم ، وتشدد في دين الإسلام** » .

حكمة : قال رجل لبعض الحكماء : أوصني ! فقال : لا تنظر قضاه ، واطلب رضاه ، وتجنب جفاه .

حكمة : سئل حكيم : أي شيء أكثر بين الخلق ؟ فقال : كثرة التدبير وليس قدرة ، ومع الاستكثار لا تزول الحاجة ، والعبد يحرص على كل شيء إلا على الفقر ، فليس يحرص عليه أحد ؛ لأن الخلق كلهم يطلبون الغنى ، ولا يحرص أحد على الغم ؛ لأن الكل يطلبون السرور ويحرصون على الفرح ، ولا يحرص أحد على الموت ؛ لأنهم يحرصون على الحياة .

حكمة : قال أبو القاسم الحكيم : هلاك العبد في شيئين : المعصية ، والانفراد بالرأي .

حكمة : قال الحكيم : بلاء الخلق من ثلاثة : العلماء المضلين ، والقراء البله ، والعوام الحسدة . وقيل : لا تطلب صحبة من طامع ، ولا تطلب وفاء من خسيس الأصل . وقال الحكيم : شيئان غريبان في هذا الزمان : الدين والفقر .

حكمة : قال الحكيم : أربعة أحوال إن حفظتها كنت من جملة الرجال : أحدها سرك يجب أن يكون بحيث إذا علمه الناس رضيت ، والثاني علانيتك يجب أن تكون بحيث لو اقتدى بك الناس جاز لك ، والثالث أن تعامل الناس بما لو عاملوك به اخترته لنفسك ، والرابع أن تكون حالتك للناس بحيث لو كانت لك رضيت بها .

حكمة : قال الحكيم : ينبغي أن تنظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة ، وهي : أن تنظر الفقراء بعين التواضع لا بعين التكبر ، وأن تنظر الأغنياء بعين النصح لا بعين الحسد ، وأن تنظر النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة .

حكمة : قال وهب بن منبه : في التوراة مكتوب أن أم المعاصي ثلاثة : الكبر ، والحرص ، والحسد ؛ وأنها نتيجة خمسة أشياء : الأكل ، والنوم ، وراحة الجسم ، وحب الدنيا ، ومدح الناس .

وقال : من خلص من ثلاثة أشياء فمأواه الجنة ، وهي : المنة ، والمؤونة ، والملامة ؛ إذا أحسن لم يمن بإحسانه ، وأن يخفف مؤونته عن الناس ، وإذا رأى في أحد عيباً لم يلمه .

حكمة : يقال إن ابن القرية دخل على الحجاج وكان من أكابر أهل زمانه فطنة وعلماً ، فسأله الحجاج وقال له : ما الكفر؟ قال : البطر بالنعمة ، والإياس من الرحمة ؛ فقال : ما الرضى ؟ قال : الثقة بقضاء الله والصبر على المكاره ؛ فقال : ما الحلم ؟ قال : إظهار الرحمة عند القدرة والرضى عند الغضب ؛ فقال : ما الصبر ؟ قال : كظم الغيظ والاحتمال لما يراد ؛ فقال : ما الكرم ؟ قال : حفظ الصديق وقضاء الحقوق ؛ قال : ما القناعة ؟ قال : الصبر على الجوع والعري عن اللباس ؛ قال : ما الغنى ؟ قال : استعظام الصغير واستكثار القليل ؛ فقال : ما الرفق ؟ قال : إصابة الأشياء الكبيرة بالآلة الصغيرة الحقيرة ؛ فقال : ما الحمية ؟ قال : الوقوف على رأس من هو دونك ؛ قال : ما الشجاعة ؟ قال : الحملة في وجوه الأعداء والكفار ، والثبات في موضع الفرار ؛ فقال : ما العقل ؟ قال : صدق

المقال وإرضاء الرجال ؛ فقال : ما العدل ؟ قال : ترك المراد وصحة السيرة والاعتقاد ؛ فقال : ما الإنصاف ؟ قال : المساواة عند الدعاوى بين الناس ؛ فقال : ما الذل ؟ قال : المرض من خلو اليد والانكسار من قلة الرزق ؛ فقال : ما الحرص ؟ قال : حدة الشهوة عند الرجال ؛ فقال : ما الأمانة ؟ قال : قضاء الواجب ؛ فقال : ما الخيانة ؟ قال : التراخي مع القدرة ؛ قال : فما الفهم ؟ قال : التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها .

حكمة : قال الحكيم : ثمانية تجلب الذل على أصحابها وهي : جلوس الرجل على مائدة لم يدع إليها ، ومن تأمر على صاحب البيت ، والطامع في الإحسان من أعدائه ، والمصغي إلى حديث اثنين لم يدخلاه بينهما ، ومحتقر السلطان ، ومن جلس فوق مرتبته ، ومن تكلم عند من لا يستمع ، ومن صادق من ليس بأهل .

حكمة : سئل بزرجمهر : أي شيء يقبح بالإنسان ذكره وإن كان صحيحاً ؟ قال : مدح الإنسان نفسه ؛ لأنك لا تجد بخيلاً ممدوحاً ، ولا ذا غضب مسروراً ، ولا عاقلاً حريصاً ، ولا ترى كريماً حاسداً ، ولا قنوطاً عتياً ، ولا تجد لملول صديقاً .

حكمة : قال الحكيم : خمسة يفرحون بخمس ثم يندمون بعدها : الكسلان إذا فاتته الأمور ، والمنقطع عن إخوانه إذا نالته شدة ، ومن أمكنته فرصة على أعدائه ثم عجز عن انتهازها ، ومن ابتلي بامرأة سوء وتذكر المرأة الصالحة قبلها ، والرجل الصالح يندم على ارتكاب الذنوب .

حكمة : سئل بزرجمهر : هل يقلب المال قلوب العلماء من الرجال ؟ فقال : من قلب المال قلبه فليس بعالم .

حكمة : قال الحكيم : العتاب الظاهر خير من الحقد الباطن .

حكمة : قال بزرجمهر : أصحاب الغم والحزن في الدنيا ثلاثة : محب فارق حبيبه ، ووالد شفوق ضل عنه ولده ، وغني عاد فقيراً .

حكمة : قال الحكيم : خمسة يكون المال أعز من أنفسهم وأرواحهم عليهم وهم : المقاتل بالأجرة ، وحفار الآبار والقنوات ، وراكب البحر للتجارة ، والحواء الذي يتصيد الحيات ، وآكل السم بالمراهنة .

حكمة : قال عمرو بن معدي كرب : الكلام اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخر ، والكلام الخشن يخشن القلوب التي هي أنعم من الحرير .

حكمة : قال الحكيم: الحزن مرض الروح كما أن الوجع مرض الجسد ، والفرح غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الجسد . وطلب حكيم من رجل أن يدينه ديناراً فلم يفعل ، فقال الحكيم : لم يكن من منعك إياي إلا أن احمر وجهي من الحياء مرة واحدة ، ولو أعطيتني لم يصفر وجهي من مطالبتك مرة بل ألف مرة .

حكمة : قال الحكيم : من يزرع وطينه رطب لم يساو قيمته شيئاً . وقال : من ليس له لب ولا خطر فهو شجر بلا ثمر . وقال : من سل سيف الجور قتل به ، ومن لم ينصف من نفسه لم يخلص من حسرته ، ومن أطلق يده بالعطاء أشرق وجهه بالضياء . وقال : من لم يحترز[1] من ذنبه فقد تعلق به . وقال : الشباب رضيع الجنون ، والشيب قرين التوفيق والسكون وقال : تزود طاهر الزاد ، ولا تخف من الأضداد .

عظة : قال لقمان : كنت أسير في طريق فرأيت رجلاً عليه مسح فقلت : ما أنت أيها الرجل ؟ فقال : آدمي ، فقلت : ما اسمك ؟ فقال : حتى أنظر بماذا أسمى ، فقلت : ماذا تصنع ؟ قال : ترك الأذى ، فقلت : ماذا تأكل ؟ قال : الذي يطعمني ويسقيني ، فقلت : من أين يطعمك ؟ فقال : من حيث شاء ، فقلت : طوبى لك وقرة عين ! فقال : ما الذي يمنعك عن هذه الطوبى وقرة العين ؟

حكمة : قيل ثلاثة تذهب عن القلب العمى : صحبة العالم ، وقضاء

---

(١) يحترز : يتوقى .

الدين ، ومشاهدة الحبيب . وقيل : شيئان يجلبان الحزن إلى القلب : الطمع في جود البخلاء ، والمراء مع الوضعاء .

حكمة : قال الحكيم : تجنب أربعة أشياء تخلص من أربعة أشياء : تجنب الحسد لتخلص من الحزن ، ولا تجالس جليس السوء وقد تخلصت من الملامة ، ولا ترتكب المعاصي وقد خلصت من النار ، ولا تجمع المال وقد خلصت من العداوة .

حكمة : قال الحكيم : أربعة أعمال مذمومة يعملها الناس فيجازون بها في الدنيا والآخرة : الغيبة ، فقد قيل فارس يلحق سريعاً ، والثاني احتقار العلماء لأن من احتقر عالماً عاد حقيراً ، والثالث كفران نعم الله عز وجل ، والرابع قتل النفس بغير حق ، وللأكابر والحكماء مثل قديم « كل قاتل مقتول ولو بعد حين » ؛ قال الشاعر :

إذا مكنت بـالسكيـن كفّـاً — لقتـل النـاس فـاذكـر السبيـلا
رأى عيسى قتيلاً في طريق — فعض على أنـامله طـويـلا
وقـال لمن قتلت نراك حتى — غدوت كما أرى ملقى قتيلا
وقـاتلك الـذي أرداك أيضـاً — يذوق القتل فليـطل العويـلا

* * *

الباب السادس

في شرف العقل والعقلاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق العقل على أحسن صورة وقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت في خلقي شيئاً أحسن منك ! بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب . والدليل على صحة هذا أن الله تعالى على العباد شيئين وكلاهما موقوفان على العقل ، وهما الأمر والنهي ، كما جاء في محكم التنزيل قوله جل ذكره : ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب** ﴾ [المائدة : ١٠٠ ، الطلاق : ١٠] . هم ذوو العقول ، واشتقاق العقل من العقال ، والمعقل المنيع القلعة على رأس الجبل لا يصل إليها يد أحد لامتناعها وقوتها وإحكامها .

سئل حكيم الفرس : لم سمي العاقل عاقلاً ؟ فقال : للعاقل أربع علامات يعرف بها ، وهي أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه ، وأن يتواضع لمن دونه ، وأن يسابق إلى فعل الخير لمن هو أعلى منه ، وأن يذكر ربه دائماً ، وأن يتكلم عن العلم ويعرف منفعة الكلام في موضعه ، وإذا وقع في شدة التجأ إلى الله تعالى . وكذلك الجاهل له علامات ، وهو أن يجور على الناس ويظلمهم ، ويعسف بمن دونه ، وأن يتكبر على الزعماء والمتقدمين ، وأن يتكلم بغير علم ، وأن يسكت عن خطأ ، وإذا وقع في شدة أهلك نفسه ، وإذا رأى أعمال الخير لفت عنها وجهه .

حكمة : قال سعيد بن جبر : ما رأيت للإنسان لباساً أشرف من العقل ، إن

انكسر صحَّحه ، وإن وقع أقامه ، وإن ذل أعزه ، وإن سقط في هوة جذبه بضَبْعه[1] منها واستنقذه منها ، وإن افتقر أغناه . وأول شيء يحتاج إليه البليغ العلم الممتزج بالعقل كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إنه ما كان في خلفاء بني العباس أعلم من المأمون في جميع العلوم ، فكان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة الفقهاء ، وكان يجتمع عنده الفقهاء والمناظرون ، والعلماء والمتكلمون ، فدخل في بعض الأيام إلى مجلسه رجل غريب عليه ثياب بياض رثة ، فجلس في أواخر الناس وقعد من وراء الفقهاء في مكان مجهول ، فلما ابتدأوا في المسائل ، وكان رسمهم يديرون المسألة على جماعة أهل المجلس فكل من وجد زيادة لطيفة أو نكتة غريبة ذكرها ، فدارت المسألة إلى أن وصلت إلى ذلك الرجل الغريب ، فتكلم بكلام عجيب ، فاستحسنه المأمون فأمر أن يرفع إلى أعلى من ذلك الموضع . فلما دارت المسألة الثانية أجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم فأمر أن يرفع إلى أعلى من تلك المرتبة . فلما وصلت الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابين الأولين ، فأمر المأمون أن يجلس قريباً منه . فلما انقضت المناظرة أحضر الماء وغسلوا أيديهم ، ثم أحضر الطعام فأكلوا ، ثم نهض الفقهاء وخرجوا ، وقرب المأمون ذلك الرجل وأدناه وطيب قلبه ووعده بالإحسان إليه والإنعام عليه . ثم عبى[2] مجلس الشراب ونضد[3] ، وحضر الندماء الملاح ، وذات الراح . فلما وصل الدور إلى الرجل نهض قائماً وقال : إن أذن أمير المؤمنين تكلمت بكلمة واحدة ؛ فقال : قل ما تشاء ! فقال : قد علم الرأي العالي زاده الله علواً أن العبد كان في المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاس ، وأن أمير المؤمنين بقدر يسير من العقل الذي أبداه جعله مرفوعاً على درجة غيره ، وبلغ به الغاية التي لم تسم إليها همته ، وأن العبد إذا شرب الشراب

---

(1) الضَّبْع (بفتح الضاد المعجمة وسكون الباء الموحدة) : ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها . وهما ضبعان .

(2) عبى : تهيّأ .

(3) نضد : اتسق .

تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسلب أدبه ، فعاد إلى تلك الدرجة ، ووقع في أعين الناس كما كان ذليلاً ، فإن رأى الرأي العالي أن لا يفرق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذي أعزه بعد الذلة ، وكثره بعد القلة ، بمنه وفضله وكرمه ، وسيادته وحسن شيمه ، فعل متطولاً ، وأنعم متفضلاً . فلما سمع المأمون منه ذلك مدحه وشكره وأجلسه في رتبته ووقره ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وحمله على فرس ، وأعطاه ثياب تجمل . وكان كل مجلس يرفعه على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجة ، وأعلى منزلة . وإنما أوردنا هذه الحكاية لأجل نعت العقل ؛ لأن العقل يوصل صاحبه إلى درجة عالية ، ومرتبة سامية ، وأن الجهل يحط صاحبه عن درجته ويهبط به من علو مكانته .

حكاية : يقال إنه جاء في بعض الأيام رجل إلى باب الخليفة المنصور ، فقال : أيها الحاجب أعلم أمير المؤمنين أن بالباب رجلاً من أهل العلم واسمه عاصم ، وهو يذكر أنه كان في الزمن الماضي بينه وبين أمير المؤمنين صحبة مدة سنة وأكثر بالشام في التعليم والدرس ، وقد وصل الآن للسلام ، ولتجديد العهد بالإمام . فلما عرفه الحاجب أذن له ، فلما دخل وسلم عليه ثقل قدومه ووصوله على قلب أبي الدوانيق لغثاثة منطقه وسوء أدبه ، فأجلسه وسأله وقال له : في أي حاجة قدمت ؟ فقال : لرؤية أمير المؤمنين بوسيلة تلك الصحبة القديمة ؛ فأمر له بألف درهم ؛ فأخذها الرجل وانصرف . ثم عاد بعد سنة أخرى وكان قد مات للمنصور ولد وهو جالس في العزاء ، فدخل الرجل وسلم عليه ودعا له ، فقال : فيم قدمت ؟ قال : أنا ذلك الرجل الذي كنت معك في الشام وقد قدمت معزياً برزيتك ، ومؤدياً حق تعزيتك ، فأمر له بخمسمائة درهم ؛ فأخذها ثم عاد بعد سنة أخرى ، فلم يجد حجة يحتج بها في الدخول ، إلا أنه دخل في جملة الناس وسلم ، فقال له الخليفة : لأي سبب وصلت ؟ فقال : أنا ذلك الرجل الذي كنت معك في الشام في التعليم والدرس وكتابة الأخبار واستماع الأحاديث ، وكنت قد كتبت معك دعاء الحاجة ، وأن كل من دعا به في حاجة قضى الله حاجته، وقد ضاع مني ذلك الدعاء وقد أتيت أمير المؤمنين لأكتب نسخة ذلك الدعاء . فقال له المنصور : لا تتعب في طلب ذلك الدعاء فإنه غير مستجاب ، وإنني قد دعوت به

منذ ثلاث سنين ليخلصني الله من صداعك فلم أخلص ، ولو كان مستجاباً لتخلصت منك ؛ فخجل ذلك الرجل لما سمع هذا الكلام . وإنما أوردنا هذه الحكاية لأن الإنسان إذا كان عالماً ولم يكن له عقل سقط جاهه ومرتبته .

حكاية : كان في ذلك العصر وصل رجل من مدينة الرسول ﷺ إلى المنصور بحكم الصداقة التي كانت بينهما قديماً ، فلما صار خليفة الزمان قدم عليه ، ووفد إليه ، وكان الرجل عاقلاً لبيباً ولم يكن عالماً ، فلما رآه المنصور قربه وأدناه ، وأزلفه واستدعاه . فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين أنا محب لك شديد المحبة والولاء ، مخلص في الطاعة والدعاء ، غير أنني لا أصلح لخدمة الملوك ، فكيف ينبغي أن أزورك بحيث لا يظهر مني سوء أدب ؟ فقال المنصور : أخر الزيارة ، وإذا زرتني فاجعل بين زيارتك وانقطاعك مدة إذا غبت فيها لم أنسك ، وإذا حضرت لم أملَّك ، وازدادت محبتك عندي عما كانت عليه أولاً ؛ وإذا دخلت فاجلس بعيداً مني حتى يقربك الحاجب بالتدريج ؛ ولا تطل جلوسك فتنسب إلى سوء الأدب ، ولا تسأل حاجتك لئلا تثقل على قلبي ، وإذا أحسنت إليك فاشكرني في كل محلة تحلها ومنزلة تنزل ، بحيث إذا بلغني سررت بشكرك ، وازددت في برك ؛ ولا تذكر في المجالس ما جرى بيني وبينك في الزمان الماضي . فامتثل الرجل هذه الوصايا فكان في كل سنة يمضي إلى سلامه مرتين ، وكان المنصور يعطيه في كل مرة يسلم عليه ألف درهم .

وإنما ذكرت هذه الحكاية ليعلم أن من كان له عقل وإن لم يكن عالماً فإن عقله يكون له دليلاً ، ومن كان ذا علم وليس له عقل عادت أموره كلها منعكسة منقلبة ، ومن كان تام العقل والعلم كان في الدنيا نبيّاً أو حكيماً أو إماماً ، فإن جمال الانسان وعزه ومرتبته وصلاح أحوال دنياه وآخرته بالعقل وتمامه ، فتتكامل صفاته وأقسامه كما قال الشاعر :

بالعقل ينال المرء أوج البدر   والعقل به الجاه وسامي القدر

والعقل به يغسل عار الوزر   في العقل التاج مع نفاذ الأمر

والعقل أول الإيمان ووسط الإيمان وآخر الإيمان . قال بعض القدماء :

ليس العقل أن الإنسان إذا وقع في أمر اجتهد في حسن خلاصه منه ، بل العقل أن لا يوقع نفسه في أمر يحتاج إلى الخلاص منه .

حكمة : قال أبرويز الملك لولده : احفظ الرعية ليحفظك العقل ، واصرف آفتك عن الرعية ليصرف العقل آفته عنك ! واعلم أنك حكم بين الناس ، والعقل حكم جليل ، فكما ينبغي أن يقبل الناس أمرك ، فكذلك ينبغي أن تقبل أمر العقل .

حكمة : كتب يونان الوزير كتاباً إلى الملك العادل كسرى أنو شروان ، وأدى رسائل في باب العقل وما يأمر به العقل ، فشكره أنو شروان وأمر الكاتب أن يكتب إليه جواباً وقال : أيها الحكيم لقد أحسنت في تأدية رسالة العقل ، لأننا ومن تقدمنا من الملوك إنما تحلينا بالعقل ، فكيف يمكننا مخالفته ! فإن العاقل أقرب الناس إلى الله تعالى ، والعقل كالشمس في الدنيا وهو قلب الحسنات ، والعقل حسن في كل واحد وهو في الأكابر والزعماء أحسن ، كالرطوبة في الشجرة ما دامت طرية رطبة كان الناس من رائحتها ونشر أزهارها وطيب ثمارها ونضارتها وطراوتها في سرور وغبطة ونزهة وفرحة ، فإذا جفت رطوبتها وقحلت نضارتها فلا تصلح حينئذ لسوى القلع ؛ وكذلك الإنسان ما دام عقله قويماً ، وجسمه سليماً ، وصحبته مباركة ، ومواصلته حسنة نافعة ، فإذا زال عقله ، وغلب عليه جهله ، فحينئذ لا يصلح للحياة ، ولا يستره غير الوفاة .

وقال أنو شروان : كيف يسعني أن أخالف العقل ولا أفعل ما يأمرني به العقل ، وأنه ليس لملك ولا رعية خير من العقل ؟ فإن بضيائه يفرق بين المليح والقبيح ، والجيد والرديء ، والحق والباطل ، والصدق والكذب . قال بزرجمهر : شيئان لا يمكن وجودهما في شخص كاملين : العقل والشجاعة .

حكمة : قال لقمان الحكيم : مهما كان الرجل عالماً فإنه لا ينتفع بعلمه ما لم يكن العقل لعلمه مصاحباً .

حكمة : سأل أنو شروان بزرجمهر : من تحب أن يكون أعقل الناس ؟ فقال : العدو إذا عاداني ؛ فقال : ولم ؟ قال : لآمن إساءته . وكل شيء إذا كثر هان إلا العقل ، فإنه كلما كان أكثر كان صاحبه أعز .

حكمة : قيل لبزرجمهر : أي شيء لا بد للإنسان منه ولا مندوحة له عنه ؟ فقال : العقل ؛ فقيل له : ما قدر العقل ؟ فقال : شيء لا يوجد في الإنسان كاملاً كيف يعرف قدره .

حكمة : قال بعض الحكماء : جميع الأشياء مفتقرة إلى العقل والعقل مفتقر إلى التجربة ، ولا غنى أعم من العقل ، ولا فقر أشد من الجهل ؛ وكل من كان علمه أكثر كانت حاجته إلى العقل أوفر ، والمرء في هذا كراعٍ ضعيف معه قطيع كبير يضرب للعالم الذي لا عقل له .

حكمة : قالت العلماء : العقل أمير وله جنود ، وجنوده التمييز والحفظ والفهم . وسرور الروح العقل لأن به ثبات الجسم ، والروح سراج نوره العقل ثم ينبسط في جميع الجسد ، والعاقل لا يغتم أبداً لأنه لا يفعل ما يوجب الاغتمام ، ولا يشرع في أمر لا يجوز لمثله الاهتمام به .

حكمة : سئل ابن عباس : العقل خير أم الأدب ؟ فقال : العقل ؛ لأن العقل من الله تعالى والأدب تَكَلُّفٌ من العبد . وسئل عبد الله بن المبارك : العقل خير أم الأدب ؟ فقال : العقل ؛ فقيل له : ما العقل ؟ فقال : العقل تعلم العلم ، والعمل بالعلم أن تعلم أنه ينبغي أن تعمل ، والعقل أنك متى علمت عملت .

وقال النبي ﷺ : « **ما قسم الله لعباده خيراً من العقل ، ونوم العاقل خير من عبادة الجاهل ، والعاقل المفطر خير من الجاهل الصائم ، وضحك العاقل خير من بكاء الجاهل** » .

حكمة : قال رجل لأقليدس : لا أستريح أو أتلف روحك ؛ فقال : أنا لا أستريح أو أخرج الحقد من قلبك .

حكمة : قال الحكيم : كما تفوح من الميتة الرائحة المكروهة يفوح من الجاهل نتونة الجهل فتضرّ به وبجيرانه وأقاربه .

حكمة : سئل الحكيم : ما العقل؟فقال : سداد وعقد بين ثلاثة وعشرين شيئاً، فلولا هذه العقود لاختلط الجيد بالرديء ؛ أولاً هو عقد بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الجد والتهور ، وبين الإسلام والغفلة ، وبين اليقين والشك ، وبين العافية والبلاء ، وبين الكرم والبخل ، وبين حسن الخلق والقباحة ، وبين التواضع والتكبر ، وبين الصداقة والعداوة ، وبين العلم والجهل ، وبين الحياء والوقاحة ، وبين الحق والباطل ، وبين الرزانة والخفة ، وبين الظلمة والضياء ، وبين الكرامة والذلة ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين ذكر الله تعالى والغفلة ، وبين النصيحة والحسد ، وبين السنة والبدعة ، وبين الرحمة والقساوة ، وبين الحلم والحمق .

وقال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى : جميع محاسن الدنيا في العقل ، وسائر العلوم والأعمال مرجعها إلى العقل كما جاء في الحكاية :

حكاية : روي أن الريح حملت كرسي سليمان بن داود عليهما السلام وجعلت تسير به ، فلاح لسليمان بلد فأمر الريح أن تحطه ، فنزل على باب ذلك البلد فرأى على بابه مكتوباً : أجرة اجتهاد يوم واحد درهم ، والحسن والجمال أجرتهما في يوم مائتا مثقال ، وعلم ساعة واحدة لا تحصى قيمته ، وجميع الأشياء منوط بالعلم والعلم أسير ، والتدبير مع العقل توأمان ، ومن آتاه الله العقل فقد آتاه خيراً كثيراً كما قال الشاعر :

إن كنت من أصل جوهر منسوب   أو يوسف الحسن ولد يعقوب
ما أنت مجالس بعقلك المحبوب   في الناس سوى محقر معيوب

لتعلم أيها الأخ كنه العقل ونفاسته وعلو قيمته ، فيجب عليك أيها العاقل الحمد والشكر لواهب الشكر الباري جلت قدرته .

الباب السابع

في ذكر النساء

خير النساء وأبركهن الحسناء الولود الخفيفة المهر . قال عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بالمرأة الحرة فإنها أطهر وأبرك** » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التجئوا إلى الله عز وجل من شرار النساء ، واحذروا خيارهن ! .

قال صاحب الكتاب : من أراد صلاحه وتدبيره ولم يجد المرأة الحسناء يلهو بها فعليه بالمرأة الدينة ، فذات الدين خير وأبرك ، وإذا جاءت الديانة أتى المال وكان أبرك ؛ لأن المرأة التي لا دين لها فما لها أصل ولا معها بركة ، وببركة الديانة يوجد كل خير كما في الحكاية :

حكاية : كان بمدينة مرو رجل اسمه نوح بن مريم ، وكان رئيس مرو وقاضيها ، وكان له نعمة كبيرة وحال موفورة ، وكانت له ابنة ذات حسن وجمال وبهاء وكمال ، قد خطبها جماعة من الأكابر والرؤساء وذوي النعمة والثروة ، فلم ينعم بها لأحد منهم ، وتحير في أمرها ولم يدر لأيهم يزوجها ، وقال : إن زوجتها لفلان أسخطت فلاناً . وكان له غلام هندي تقي اسمه مبارك ، وكان له كرم عامر الأشجار والفاكهة والثمار ، فقال للغلام : أريد أن تمضي وتحفظ الكرم ؛ فمضى الغلام وأقام في الكرم شهراً ، فجاء سيده في بعض الأيام إلى الكرم لينظره فقال له : يا مبارك ناولني عنقود عنب ! فناوله عنقوداً من العنب

فوجده حامضاً ، فقال له سيده : أعطني غير هذا ! فناوله عنقوداً فوجده حامضاً ، فقال له سيده : ما السبب في أنك لا تناولني من هذا الكثير غير الحامض ؟ فقال : لأني لا أعلم أحامض هو أم حلو ؛ فقال له سيده : سبحان الله ! لك في هذا الكرم شهر كامل ما تعرف الحامض من الحلو ؟ فقال :

وحقك أيها السيد إنني ما ذقته ولم أعلم أحامض أم حلو ؛ فقال له : لم لا أكلت منه ؟ فقال : لأنك أمرتني بحفظه ولم تأمرني بأكله ، فما كنت أخونك ؛ فعجب القاضي منه فقال له : حفظ الله عليك أمانتك . وعلم القاضي أن الغلام غزير العقل فقال له القاضي : أيها الغلام قد وقع لي رغبة فيك ، وينبغي أن تفعل ما آمرك به ؛ فقال الغلام : أنا مطيع لله ولك ؛ فقال القاضي : اعلم أن لي بنتاً جميلة وقد خطبها كثير من الرؤساء والمتقدمين ولا أعلم لمن أزوجها ، فأشر علي بما ترى ! فقال الغلام : إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب والبيت والحسب ، واليهود والنصارى يطلبون الحسن والجمال ، وفي عهد رسول الله ﷺ كان الناس يطلبون الدين والتقى ، أما وفي زماننا هذا فالناس يطلبون المال فاختر من هذه الأربعة ما تريد ؛ فقال القاضي : قد اخترت الدين والتقى والأمانة ، أريد أن أزوجك ابنتي ؛ لأني قد وجدت فيك الصلاح والديانة والأمانة ، وجربت منك العفة والصيانة ، فقال الغلام : أيها السيد أنا عبد رقيق هندي أسود ابتعتني بمالك ، كيف تزوجني بابنتك ، وكيف تختارني ابنتك وترضاني ؟ فقال له القاضي : قم بنا إلى البيت لندبر هذا الأمر ! فلما صارا إلى المنزل قال القاضي لزوجته : اعلمي أن هذا الغلام الهندي دين تقي ، وقد رغبت في صلاحه وأريد أن أزوجه ابنتي ، فما تقولين ؟ فقالت : الأمر إليك ، ولكن أمْضي إلى الصبية وأخبرها وأعيد عليك جوابها . فجاءت المرأة إلى الصبية وأدت إليها رسالة أبيها ، فقالت : مهما أمرتماني به فعلته ، ولا أخرج من تحت حكمكما ولا أعاندكما بالمخالفة ، بل أبركما . فزوج القاضي ابنته بالمبارك ، وأعطاهما مالاً عظيماً ، فأولدها المبارك ولداً وسماه عبد الله ، وهو معروف في جميع العالم وهو عبد الله بن المبارك صاحب العلم والزهد ورواية الأحاديث ، فما دامت الدنيا يُحَدَّثُ عنه ويُرْوَى .

نعم أيها الأخ ، إذا تزوجت فاطلب ذات الدين ولا تطلب ذات الصيت والمال ، فإن المال يعود وبالاً ولا تعطيكه المرأة ، وإذا أردت أن تطلب زوجة فلا تطلبها وتخطبها لأجل بلوغ الشهوة ، وارغب فيها بنية أنها دينة وصالحة ، لتكون في خدرك وطاعتك وتكون لك ستراً من النار .

حكاية : نزل بعبد الله بن المبارك في بعض الأيام عشرة من العلماء ، ولم يكن عنده ما يضيفهم به ، وما كان يملك سوى فرس يحج عليها سنة ويغزو سنة ، فذبح ذلك الفرس وطبخ منه وقدمه بين يدي أضيافه ، فقالت له زوجته : سبحان الله ما كنت تملك سوى هذا الفرس من الدنيا فلم ذبحته ؟ فدخل سريعاً إلى بيته وأخرج من متاع بيته بقدر مهرها وطلقها في وقته وساعته وقال: امرأة تبغض الأضياف لا تصلح لنا . فأتاه بعد ذلك بأيام رجل وقال له : يا إمام المسلمين لي بنت وقد توفيت أمها وهي في كل يوم تمزق دست ثياب حزناً وغمّاً ، واليوم تريد أن تقصد مجلسك ، فقل في تسليتها شيئاً لعل قلبها يرق . فلما جلس على المنبر ذكر من هذا الباب ما تسلت به الصبية عن أمها ، فلما عادت إلى البيت قالت : يا أبت قد تبت ولا أعود أسخط الله تعالى ، ولكن لي إليك حاجة ؛ قال : وما حاجتك ؟ قالت : أنت تقول دائماً أرباب الأحوال وأبناء الدنيا يطلبونك ويخطبونك ، فناشدتك الله لا تزوجني لغير عبد الله بن المبارك ، فإن كان ماله دنيا فإن لنا دنيا. فزوجها أبوها بعبد الله بن المبارك، وحمل إليه جهازاً كثيراً ومالاً كبيراً ، وأنفذوا إليه عشرة أفراس ليجاهد عليها في سبيل الله . فرأى عبد الله في بعض الليالي في منامه قائلاً يقول : إن كنت طلقت من أجلنا عجوزاً فقد أعطيناك صبية بكراً ، وإن كنت ذبحت فرساً واحداً فقد أعطيناك عشرة أفراس عوضها ، لتعلم أن الحسنة بعشر أمثالها عندنا ، ولا يضيع عندنا أجر المحسنين ، وما عاملنا أحد فخسر ولا يخسر كما جاء في الحكاية :

حكاية : حكى أبو سعيد أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح وله زوجة دينة تقية ذات رأي وحزم ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لذلك العبد الصالح إني قدرت له أن يمضي نصف عمره بالغنى ونصفه بالفقر ، فإن اختار أن يكون غناه في شبيبته أغنيناه ، وإن اختار أن يكون في شيخوخته قدرنا

له ذلك فيسرناه له . لما أعلم الرجل ذلك أخبر به زوجته وقال لها : قد جاء خطاب من الله تعالى ؛ وقص عليها ما سمعه وقال لها : ما ترين ؟ فقالت له : الاختيار إليك ؛ فقال الرجل : قد رأيت الفقر في الشبيبة فإذا كنت شابّاً فقيراً احتملت وصبرت عليه ، فإذا صرت كبيراً غنيّاً كان لي ما أتقوت به وأشتغل بطاعة ربي وعبادته ؛ فقالت المرأة : أيها الرجل إذا كنا في الشبيبة في ضنك ولم نقدر على طاعة ربنا تعالى ولم تصل أيدينا إلى فعل الخيرات وإعطاء الصدقات، فالواجب أن نختار الغنى في زمان الشباب فيكون لنا شباب وغنى وطاعة ، فنقدر حينئذ على عبادته بأجسامنا وأموالنا ؛ فقال الرجل : نعم ما رأيت وكذلك نفعل . فنزل الوحي على ذلك النبي عليه السلام فقال : قل لذلك الرجل إذا آثرت طاعتنا ، واستفرغت جهدك في عبادتنا ، واتفقت نيتك ونية زوجتك على طاعتنا ، فقد قضيت وقدرت أن أقضي جميع عمرك في الغنى ؛ وكن أنت وزوجتك على عبادتي ، ومهما رزقتكما فتصدقا به على بريتي ليكون لكما حظ الدنيا والآخرة .

قال صاحب الكتاب : وما أوردنا هذه الحكاية إلا لتعلم قدر الزوجة الصالحة وما فيها من النعمة من الله تعالى .

* * *

فصل

واعلم أن ديانة المرأة وسترها نعمة من نعم الله تعالى على عبده ؛ وهيهات أن يقدر على المرأة العفيفة طامع كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إنه أراد رجل فاسق أن يكابر امرأة عفيفة بالحرام فقال لها : امضي وأغلقي أبواب الدار جميعها وأحكمي إغلاقها ! فمضت المرأة ثم عادت فقالت : قد أغلقت سائر الأبواب وأوثقت إغلاقها سوى باب واحد ؛ فقال : أي الأبواب ذلك الباب ؟ فقالت : تلك الأبواب التي بيننا وبين الخلق قد أغلقتها ، وقد بقي الباب الذي بيني وبين الخالق جلت عظمته ما قدرت عليه ولا استطعت أن أغلقه وهو بحاله مفتوح . فوقع في نفس هذا الرجل من هذا الكلام الهيبة فأخلص لله التوبة وأقلع عن ذنبه وعاد إلى طاعة ربه الأعلى .

حكاية مثلها : يقال إنه كان رجل علوي بسمرقند في بعض الأيام قائماً على باب داره ، فاجتازت عليه امرأة ذات حسن وجمال وكان الدرب خالياً ، فقبض العلوي على زند المرأة وجذبها إلى داخل الدار وهم أن يفسد معها ، فقالت له المرأة : أسألك مسألة أجنبي عنها وافعل ما بدا لك ! فقال: اذكري ما تريدين ! فقالت : إذا أنت وطئتني حراماً وحبلت منك وولدت ولداً هل يكون ذلك الولد علويّاً أو خبيثاً عاميّاً ؟ فقال : إنه يكون علويّاً ؛ فقالت المرأة : لا شك أنك أنت من خبيثي العلويين ، ولو لم تكن خبيثاً لم تفعل مثل هذا . فخجل العلوي في الحال ورفع يده عنها ونذر على نفسه لله نذراً أنه لا يعود ينظر إلى امرأة محرمة عليه نظرة فساد .

وينبغي أن يكون الرجل صاحب حمية وغيرة على حرمه وناسه ، فإن

الحمية من الدين إلى حد أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يسمع دق المرأة الأجنبية بالهاون ، وإذا دق رجل أجنبي باب الدار فلا يحل للمرأة أن تجيبه بلين وسهولة ؛ لأن قلوب الرجال تتعلق بأقل الأشياء وأكثرها ؛ وإن كان لا بد للمرأة أن تجيبه فلتضع أصبعها في فمها ولتجبه ليصير صوتها شبيهاً بصوت العجائز . ولا يجوز للنساء أن ينظرن إلى الرجال الأجانب ولو كان المنظور أعمى . وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ دخل إلى بيت عائشة رضي الله عنها فرأى عبد الله ابن أم مكتوم قاعداً النساء[1] فقال : « **يا عائشة لا يحل للمرأة أن تقعد عند غير ذي محرم** » ، فقالت : يا رسول الله إنه أعمى ، فقال : « **إن كان لا يراك فإنك ترينه** » .

حكاية : يقال إن الحسن البصري رحمة الله عليه قصد زيارة رابعة العدوية رضي الله عنها في جماعة من أصحابه ، فلما وصلوا الباب قالوا : أتأذنين لنا في الدخول ؟ فقالت : تمهلوا ساعة ! وجعلت الكساء بينها وبينهم ستراً وأذنت لهم ، فدخلوا وسلموا عليها ، فأجابتهم من وراء الستر ، فقالوا : لم علقت بيننا وبينك ستراً ؟ فقالت : أمرت بذلك في قوله تعالى : ﴿ **فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

واجب على الرجل أن لا ينظر إلى امرأة أجنبية بحال ، فإنه قبل أن يجازى به في الآخرة يجازى به في الدنيا كما جاء في الحكاية :

حكاية : كان بمدينة بخارى رجل سقاء يحمل الماء إلى دار رجل صائغ مدة ثلاثين سنة ، وكان لذلك الصائغ زوجة في نهاية الحسن والجمال والظرف والكمال ، معروفة بالديانة ، موصوفة بالستر والصيانة . فجاء السقاء على عادته يوماً وقلب الماء في الباب وكانت المرأة قائلة في وسط الدار ، فدنا منها وأخذ بيدها ولواها وفركها وعصرها ثم مضى وتركها . فلما جاء زوجها من السوق قالت له : أريد أن تعرفني أي شيء صنعت اليوم في السوق لم يكن لله تعالى

---

(١) كذا في الأصل ولعله بين النساء أو مع النساء .

فيه رضا ؟ فقال الرجل : ما صنعت شيئاً ؛ فقالت المرأة : إن لم تصدقني وتعرفني فلا أقعد في بيتك ولا تعود تراني ولا أراك ؛ فقال : اعلمي أن في يومنا هذا أتت امرأة إلى دكاني فصنعت لها سواراً من ذهب ، فأخرجت المرأة يدها ووضعت السوار في ساعدها ، فحرت من بياض يدها وحسن زندها فتذكرت هذا المثنوي :

في ساعدها سوار تبر واري[1] كنار يلوح فوق ماء جاري

هل يخطر في هواجس الأفكار ماء وله منطقة من نار

ثم أخذت يدها فعصرتها ولويتها . فقالت المرأة : الله أكبر لم فعلت مثل هذا الحال ؟ لا جرم أن ذلك الرجل الذي كان يدخل البيت منذ ثلاثين سنة ولم نر منه خيانة أخذ اليوم يدي فعصرها ولواها . فقال الرجل : الأمان أيتها المرأة مما بدا مني ، فاجعليني في حل ! فقالت المرأة : الله المسؤول أن يجعل عاقبة أمرنا إلى خير . فلما كان من الغد جاء الرجل السقاء وألقى نفسه بين يدي تلك المرأة وتمرغ على التراب وقال : يا صاحبة المنزل اجعليني في حل ، فإن الشيطان أضلني وأغواني ؛ فقالت المرأة : امض في حال سبيلك ، فإن ذلك الخطأ لم يكن منك وإنما كان من ذلك الشخص صاحب الدكان ، فاقتص الله منه في الدنيا .

وكذلك ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها ، ظاهرها وباطنها واحد ، وتقنع معه بالقليل إن لم يقدر على الكثير ، وتقتدي بعائشة وفاطمة رضي الله عنهما لتكون من أهل الجنة كما جاء في الحكاية :

حكاية : كانت فاطمة رضي الله عنها تطحن بالجاروشة إلى أن أدمت أناملها، فشكت ذلك في بعض الأيام إلى بعلها علي بن أبي طالب كرم الله

---

(١) واري : متقد . يقال : ورى الزند وريـاً ووريّاً ورية : خرجت ناره ، فهو وارٍ ووريّ . وورت النار ورياً ورية : اتقدت .

وجهه فقال : قولي لأبيك يبتع لك خادمة ! فأتت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله إني مفتقرة إلى خادمة تعينني على أشغالي وتحمل عني بعض أثقالي ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « **ألا أعلمك ما هو خير لك من خادم وأعز من سبع سموات وسبع أرضين** » ؟ فقالت : يا رسول الله علمني ! فقال ﷺ : «**اذا أردت النوم فقولي قبل منامك ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إلّه الا الله والله أكبر** » . وفي الأخبار أنهم لم يكن لهم في البيت إلا كساء كانوا إذا غطوا به رؤ وسهم انكشفت أرجلهم ؛ وفي الليلة التي كانت فاطمة عروساً وزفت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان تحتهما جلد شاة ، وكانا ينامان عليه ، وما كان لفاطمة من متاع البيت سوى كساء ومخدة من أدم حشوها ليف ؛ لا جرم ينادى لها يوم القيامة يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى تعبر سيدة النساء فاطمة الزهراء .

والمرأة تعز عند زوجها وتنمو محبتها في قلبه بإكرامها له ، وطاعتها لأمره وقت خلوته ، ومجامعته لها ، وبحفظها منافعه ، واجتنابها مضاره ، وتربيتها ولده ، واكتنانها في بيته ، وقلة خروجها من خدرها ، وأن تكون عنده عفيفة ، كاتمة للسر ، محتملة للأمر ، وأن تحفظ وقت طعامه ، ومهما علمت أن يشتهيه اصطنعته بطلاقة وجه وبشر ؛ وأن لا تكلفه حاجة ثقيلة ؛ وأن لا تكون لجوجة ؛ وأن تستر نفسها عند منامها ؛ وأن تحفظ سر زوجها في غيبته وحضوره .

قال صاحب الكتاب : وواجب على الرجال أن يؤدوا حق النساء العورات ، وأن يتحفظوا بهن من وجه الرحم والإحسان والمداراة . ومن أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً لها فليذكر عشرة أشياء من أحوالها لينصفها بها : أولها أن المرأة لا تقدر أن تطلقه بغير إذن وهو قادر على ذلك متى شاء ، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه وهو قادر على ذلك ، وأنها ما دامت في حباله لا تقدر على زوج سواه وهو يقدر على الزواج عليها ، وأنها لا يجوز لها أن تخرج من البيت بغير إذنه وهو يجوز له ذلك ، وأنها لا يمكنها أن تعزي وهو يمكنه ذلك ، وأنها تخاف منه وهو لا يخافها ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه في

وجهها وبالكلام اللين وهو لا يرضى بجميع أحوالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها ، وأنها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها دائماً ، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضاً وهو لا يغتم لو ماتت . فلهذه الوجوه التي ذكرناها يجب على العقلاء أن يكونوا رحماء على النساء ولا يظلمونهن ولا يجوروا عليهن ، فإن المرأة أسير الرجل . ويجب على الرجال مداراة النساء لنقص عقولهن ، وبسبب نقص عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر برأيهن ولا يتلفت إلى أقوالهن ؛ ومن اعتمد على آرائهن ودبر نفسه بمشورتهن كان كما جاء في الحكاية :

حكاية : يقال إن خسرو بن أبرويز كان يحب أكل السمك ، فكان يوماً جالساً وشيرين معه ، فجاء الصياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها لخسرو ووضعها بين يديه ، فأعجبته فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت شيرين : بئس ما فعلت ! فقال : ولم ؟ فقالت : لأنك إذا أعطيت أحداً من حشمك بعد هذا مثل هذه العطية احتقرها وقال أعطاني مثل ما أعطى الصياد ؛ فقال الملك : لقد صدقت ، ولكن يقبح بالملك استرجاع ما وهبه وقد فات ذلك الأمر ؛ فقالت شيرين : أنا أدبر هذا الحال ؛ فقال : وكيف ذاك ؟ فقالت : تدعو الصياد وتقول له هذه السمكة ذكر أم أنثى ؟ فإن قال أنثى فقل إنما أردت ذكراً ، وإن قال ذكر فقل إنما أردت أنثى . فنودي الصياد وكان ذا ذكاء وفطنة فقال خسرو : هذه السمكة ذكر أم أنثى ؟ فقبل الصياد الأرض وقال: أدام الله إقبال الملك ، هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى ؛ فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى . فمضى الصياد إلى الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم ووضعها في جراب كان معه وحملها على كاهله وهم بالخروج ، فوقع من الجراب درهم واحد ، فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم والملك وشيرين ينظران إليه ، فقالت شيرين لخسرو : أرأيت إلى خسة هذا الصياد وسفالته ، سقط منه درهم واحد فألقى عن عنقه ثمانية آلاف درهم ، وانحنى على ذلك الدرهم فأخذه ، ولم يسهل عليه أن يتركه فكان يأخذه بعض غلمان الملك . فحرد خسرو من ذلك ثم أعاد الصياد إليه وقال له : يا ساقط الهمة ألست

بإنسان ؟ وضعت مثل هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد ، وأسفت أن تتركه فكان يتبلغ به بعض الصعاليك ! فقبل الصياد الأرض وقال : أطال الله إقبال الملك ! لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي ، وإنما رفعته عن الأرض لأن على أحد وجهيه اسم الملك وعلى وجهه الآخر صورته ، فخشيت أن يجيء أحد بغير علم فيضع قدمه عليه فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وصورته فأكون أنا المأخوذ بهذا الذنب . فعجب خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى ، فعاد الصياد ومعه اثنا عشر ألف درهم . وأمر خسرو منادياً ينادي : لا يتدبر أحد برأي النساء ، فإن من تدبر بآرائهن أو ائتمر بمشورتهن خسر درهمه درهمين .

قال صاحب الكتاب رضي الله عنه : عمارة الدنيا وتناسل بني آدم بالنساء والعمارة لا تصح بغير رأي وتدبير . وقيل : شاوروهن وخالفوهن . ويجب على الرجل الفاضل المتيقظ أن يحتاط في خطبة النساء وطلبهن ؛ وليزوج البنت لا سيما إذا بلغت لئلا يقع في الغدر والعيب ومرض الروح وتعب القلب . وعلى الحقيقة كل ما ينال الرجل من البلاء والهلاك والمحن فبسبب النساء كما قال الشاعر :

من فتنة النسوان قد يعصى الفتى الر ... حمن أو يخشى من السلطان
اللص لولاهن لم يك بائعاً ... للروح منه بأرخص الأثمان
منهن قرع آدم مع يوسف ... في محكم التنزيل بالعصيان
وكذاك هاروت ببابل منكس ... ومعلق بالشعر في جذعان
مجنون عامر هام من أجل النسا ... في السند باد عجائب النسوان
كل البلا منهن يأتي والوفا ... منهن لا يأتي مدى الأزمان

* * *

تم الكتاب بحمد الملك الوهاب ، والصلاة والسلام على خير البريات سيدنا ومولانا ونبينا محمد سيد السادات وعلى آله وأصحابه عدد الأوقات والساعات .

الفهرس